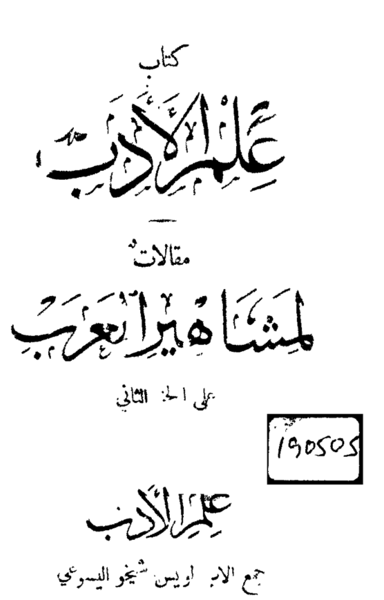


كتاب

علم الأدب

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

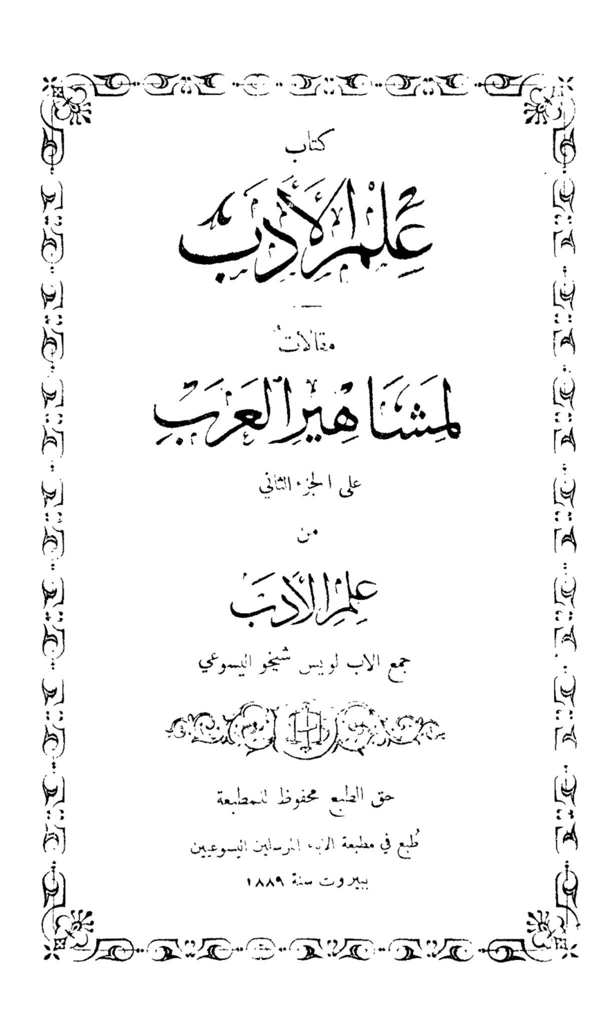
على الجزء الثاني

علم الأدب

جمع الأب لويس شيخو اليسوعي

في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩



كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مَقَالَاتٌ

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

اَلْقِسْمُ الْأَوَّلُ

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليَّات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخِطَابَةُ فِي اللُّغةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ اَلْمُكَالَمَةُ او اللَّفظُ الْمُتَوَاضَعُ عَلَيهِ اَلْمَقْصُودُ بِهِ إِفهامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطلَقُ عَلَى الْكَلَامِ النَّفسيِّ المُوَجَّهِ نَحْوَ الْغَيْرِ لِلإِفهَامِ. وَعِنْدَ الْحُكَمَاءِ الخطابةُ هِيَ القِيَاسُ المُفِيدُ تَرْغِيبَ الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى المُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ انْ

يُستعمَل في ذلكَ منَ المقالاتِ . ولمّا ظهرَ ارسطو في يونانَ وهذّبَ مباحثَ المنطقِ ورتّبَ مسائلهُ وفصولهُ وجعلهُ اوّلَ العلومِ الحكميّةِ وفاتحتها جعلَ الخطابةَ احدَ اقسامهِ الثمانيةِ . وهذهِ الاقسامُ تشتملُ على ثمانيةِ كتبٍ اربعةٌ منها في صورةِ القياسِ وهي كتبُ المقولاتِ والعبارةِ والقياسِ والبرهانِ واربعةٌ في مادّتهِ وهي كتبُ الجدلِ والسفسطةِ والخطابةِ والشعرِ . وذلكَ انَّ المطالبَ التصديقيّةَ على انحاءٍ فمنها ما يكونُ المطلوبُ فيهِ اليقينَ بطبعهِ وهو تشتملُ عليهِ الكتبُ الاربعةُ الاولى . ومنها ما يكونُ المطلوبُ فيهِ الظنَّ وهذا تشتملُ عليهِ الكتبُ الاربعةُ الاخرى . وفيها تدخلُ الخطابةُ . وتُرجمت كلّها في الملّةِ الاسلاميّةِ وكتبها وتداولها فلاسفةُ الاسلامِ بالشرحِ والتلخيصِ كما فعلهُ الفارابيُّ وابنُ سينا ثمَّ ابنُ رشدٍ من فلاسفةِ الاندلسِ . ولابنِ سينا كتابُ الشفاءِ استوعبَ فيهِ علومَ الفلسفةِ كلّها . ثمَّ جاءَ المتأخرونَ فغيّروا اصطلاحَ المنطقِ وحصروا مطالبهُ في كتبٍ خمسةٍ البرهانِ والجدلِ والخطابةِ والشعرِ والسفسطةِ وربّما يلمُّ بعضهم باليسيرِ منها إلماماً واغفلوها كأنْ لم تكنْ هي المهمَّ المعتمدَ في الفنِّ . وامّا الذي يشتملُ عليهِ كتابُ الخطابةِ فهو تعريفُ المقاييسِ الخطابيّةِ البلاغيّةِ النافعةِ في مخاطباتِ الجمهورِ على سبيلِ المشاوراتِ والمخاصماتِ في المشاجراتِ اوِ المدحِ اوِ الذمِّ او الحيلِ النافعةِ في الاستعطافِ والاستمالةِ والاغراءِ وتصغيرِ الامرِ وتعظيمهِ ووجوهِ المعاذيرِ والمعاتباتِ ووجوهِ ترتيبِ الكلامِ في كلِّ قصّةٍ وخطبةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١) . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغـةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنـهُ القول وأُبرز فيه الحكم من الاجناس العاليـة المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئـة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

البُرهان ويُقنع في الصحّة والمرض وفي انواعهما . وكذلك الهندسة انما تعلم على طريق البرهان وعلى طريق الاقناع في الاعظام والاشكال التي توجد في الاجسام . واما الخطابة فهي تتكلف الاقناع في جميع الاشياء في اي مقولة كانت واي جنس كان ولذلك ليس تنسب الى جنس خاص

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قال) انّ صناعة الخطابة تناسب صناعة الجدل . وذلك انّ كليهما يؤمّان غاية واحدة وهي مخاطبة الغير اذ كانت هاتان الصناعتان ليس يستعملهما الانسان بينه وبين نفسه كالحال في صناعة البرهان بل انما يستعملهما مع الغير وتشتركان بنحو من الانحاء في موضوع واحد اذ كان كلاهما يتعاطى النظر في جميع الاشياء ويوجد استعمالهما مشتركا للجميع اعني كل واحد من الناس يستعمل بالطبع الاقاويل الجدلية والاقاويل الخطبية . وانما كان ذلك كذلك لانه ليست واحدة منهما علما من العلوم مفردا بذاته وذلك انّ العلوم لها موضوعات خاصّة ويستعملها اصناف من الناس خاصّة . ولكن من جهة انّ هذين (اي الخطابة والجدل) ينظران في جميع الموجودات وجميع العلوم تنظر في جميع الموجودات فقد

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبِغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ . وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ . فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب) .

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنفَعَتَانِ اِحدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وذٰلِكَ انَّهُمْ بِالطَّبعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ . وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ . فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمكِنُهَا الْاِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُثْبِتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْاِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْاِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الْاِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْاِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ ، اَعْنِي اَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْاِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً اِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ. بَلْ عَمَلُهَا هُوَ اَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَاِنْ لَمْ يَقَعْ اِقْنَاعٌ. وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَاِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا ٱلْاِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ. بَلْ اِنَّمَا فِعْلُهَا اَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْاِبْرَاءِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي اَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ اَهْلِهَا مِثْلَ اَنْ يُبْرِيءَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيْسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ اِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْاَقَلِّ. وَكَمَا اَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ. لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ اِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْاَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِاِيهَامِهِ اَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ اِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

اذا استعملت نحو هذه الغاية . واما اذا استعملت على طريق الامتحان فهي جزء منها . واما الخطيب فلمّا كان خطيبًا من اجل الامور التي من خارج مثل الكرامة وغير ذلك من سائر الخيرات او من قبل ملكة هذه الصناعة كانت الاقاويل التي يظنّ بها انها مقنعة وليست بمقنعة جزءًا من هذه الصناعة . لأنّ المقصود بهذه الاقاويل في هذه الصناعة قد يكون بعينه مقصود السوفسطائي . وانما كان ذلك كذلك لأنّ المقصود بهذه الصناعة من الذي يراد اقناعه انما هو الفعل او الانفعال فاذا حصل ذلك منه فلا فرق بين ان يكون حصوله عن اقاويل هي مقنعة في الحقيقة او عن اقاويل يظنّ بها انها مقنعة وليست بمقنعة . فان كان هذا الفعل المقصود من المخاطب او الانفعال خيرًا ما له لا للخطيب كانت الاقاويل التي يظنّ بها انها مقنعة وليست بمقنعة داخلة في هذه الصناعة بالجهة التي دخلت في صناعة الجدل الاقاويل التي يظنّ بها انها جدلية اذ لم يقصد بها مقصد السفسطة . وان كان مقصد الخطيب خيرًا يناله من الخيرات التي يقصدها السوفسطائيون كان القول الذي يظنّ به انه مقنع وليس بمقنع من جهة ما هو سوفسطائي جزءًا من هذه الصناعة اذ قد يشارك الخطيب السوفسطائيّ في غايته . فلذلك قد تدخل الاقاويل السوفسطائية في هذه الصناعة ولا تدخل في صناعة الجدل

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ انْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احَدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلْاعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلْاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلْاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ انَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ افْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلْاتِّفَاقِ . وَاذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اتَمَّ وَافْضَلَ . وَهٰذَا امْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا انْ تُثْبَتَ اجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلْاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ ابو الاشعثِ قُلتُ لِبَهْلَةَ الهنديّ ايّامَ اجتلبَ يحيى ابنُ خالدٍ اطبّاءَ الهندِ : ما البلاغةُ عندَ اهلِ الهندِ. قالَ بهلة : عِندَنا في ذلكَ صحيفةٌ مكتوبةٌ ولكنّني لا احسنُ ترجمتها ولم اعالجْ هذهِ الصناعةَ فاثقَ من نفسي بالقيامِ بخصائصِها ولطيفِ معانيها. (قالَ ابو الاشعثِ) فتلقّيتُ تلكَ الصحيفةَ المترجمةَ فاذا فيها : اوّلُ البلاغةِ اجتماعُ آلةِ البلاغةِ وذلكَ ان يكونَ الخطيبُ رابطَ الجأشِ ساكنَ الجوارحِ متخيّرًا للفظِ لا يكلّمُ سيّدَ الامّةِ بكلامِ الامّةِ والملوكَ بكلامِ السوقةِ ويكونُ في كلامهِ التصرّفُ في كلِّ طبقةٍ ولا يدقّقُ المعاني كلَّ التدقيقِ ولا ينقّحُ الالفاظَ كلَّ التنقيحِ ويصفّيها كلَّ التصفيةِ ويهذّبها كلَّ التهذيبِ ولا يفعلُ ذلكَ حتى يصادفَ حكيمًا وفيلسوفًا عظيمًا. ومَن تعوّدَ حذفَ فضولِ الكلامِ واسقاطَ مشتركاتِ الالفاظِ ونظرَ في صناعةِ المنطقِ على جهةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْأَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلْإِسْتِطْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا. (قَالَ) وَٱعْلَمْ اَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ ٱلْإِسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلْإِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى اِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَاَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ اَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ اَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَاِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَاَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ اِجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) اَيْ اَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى اِكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاَعْمَلَ فِكْرَهُ اَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ. وَاِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَاَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا اَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِلْاِرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ اَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرّف
(٣) ويروى في اقدار

صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْاِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثَّرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْاِرْتِجَاجِ

وَٱلإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي ... بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلِاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلِارْتِتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) ٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيَفُلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلإِفْحَامِ كَٱلإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا ٱحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ .

قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقُ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

---

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّسهُّل وَٱلجَزَالَةِ وَٱلحَلَاوَةِ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلأَرضِ نَاطِقٌ يَستَغنِي عَنِ ٱلإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ ٱلأَلفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ ٱلبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصعَبُ مِنْ جَمعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعتَاصُ عَلَيهِ قِسمٌ مِنْ أَقسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصنَافِهِ. وَلِٱختِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ ٱمرُؤُ ٱلقَيسِ أَشعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلأَعشَى إِذَا طَرِبَ . وَكَذٰلِكَ ٱلكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَربٍ مِنَ ٱلكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيرِهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ نَوعٌ مِنهَا وَعَسُرَ نَوعٌ آخَرُ وَأَخبَرَ أَحمَدُ بنُ يُوسُفَ قَالَ : أَمَرَنِي ٱلمَأْمُونُ أَنْ أَكتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلإِستِكثَارِ مِنَ ٱلقَنَادِيلِ فِي ٱلمَسَاجِدِ . فَبِتُّ لَا أَدرِي كَيفَ أَحتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةَ ٱلمَسَاجِدِ وَأُنسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلمُتَهَجِّدِينَ وَنَفيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحشَةِ ٱلظُّلَمِ . فَٱنتَبَهتُ وَقَدِ ٱنفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتمَمتُ عَلَيهِ. وَٱلمُقَدَّمُ فِي صَنعَةِ ٱلكَلَامِ هُوَ ٱلمُستَولِي عَلَيهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلفَرَزدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعرِ ضُرُوبٌ لَا يَعرِفُهَا ٱلفَرَزدَقُ. وَسُئِلَ

بَعضُهُمْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ اَلْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ اَلْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَاُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا اَلْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى اَلْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ اَلْاَمَةِ بِكَلَامِ اَلْاَمَةِ وَلَا اَلْمُلُوكَ بِكَلَامِ اَلسُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ اَلْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ اَلَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ اَلرَّأْيِ وَقِلَّةُ اَلْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ اَلْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ اَلسُّوقِيَّ وَاَلْمَمْلُوكَ اَلْاَعْجَمِيَّ بِاَلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ اَلسَّرَاةِ. كَاَبِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ قَصَبَ اَلْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ظُبَاتِ اَلْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ اَلْمَسْحَ وَاَسْحِلِ اَلرَّشْحَ وَخَفِّفِ اَلْوَطْءَ وَعَجِّلِ اَلنَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ اَلْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو اَلْمُغَازِلِ اَلضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِاَلْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِاَلْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْاَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا اَلنِّصَاحِ وَذَاتِ اَلسَّمِّ اَلطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ اَلْخَيْفَانَةَ اَلْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا اَلْخَاسِنُ اَلْمُسَرْهَفُ (١) كَاَنَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلقَمرُ ٱلازهَرُ يُنِيرُ فِي حُضرِهِ كَٱلخُلَّبِ ٱلاَجرَدِ (١) . فَقَالَ ٱلخَيَّاطُ اَطْلُبهَا فِي بِرٍّ لَخَا ٍ (٢) . فَقَالَ : وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ فَتَحَكَ ٱللهُ فَمَا اَعْلَمُ رَطَانَتَكَ . فَقَالَ : لَعَنَ ٱللهُ اَبْغَضَنَا لَفظًا وَاَخطَانَا مَنْطِقًا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُدَقِّقِ ٱلمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدقِيقِ) قَالَ اَبُو هِلَالٍ : لِاَنَّ ٱلغَايَةَ فِي تَدقِيقِ ٱلمَعْنَى سَبِيلٌ اِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعمِيَةُ ٱلمَعْنَى لُكْنَــةٌ اِلَّا اِذَا اُرِيدَ بِهِ ٱلاَلغَازُ وَكَانَ فِي تَعمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ اثبَاتِ (٣) ٱلمَعَانِي وَمَا يَجرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱستَعمَلُوهَا وَكَنَوا بِهَا عَنِ ٱلمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلغَرَضِ . فَاَمَّا مَنْ اَرَادَ ٱلاِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ اَوْ صِفَــةِ شَيْءٍ فَاَتَى بِاِغلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلاِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلاِفصَاحِ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يُنَقِّحِ ٱلاَلفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنقِيحِ) فَتَنقِيحُ ٱللَّفظِ اَنْ يُبْنَى مِنهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلاِستِعمَالِ كَمَا قَالَ بَعضُهُمْ لِبَعضِ ٱلوُزَرَاءِ : اَحسَنَ ٱللهُ اِبَانَتَكَ . فَقَالَ لَهُ ٱلوَزِيرُ : عَجَّلَ ٱللهُ اِمَاتَتَــكَ . وَيَدخُلُ فِي تَنقِيحِ ٱللَّفظِ ٱستِعمَالُ وَحشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ . وَقَدْ اَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيرٍ قَوْلَهُ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي ٱلقُربَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱستَبشَعُوا (ٱلحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلخُلُقِ وَقَالُوا : لَيسَ فِي لَفظِ زُهَيرٍ اَنكَرُ مِنهُ . قَالَ اَبُو عُثمَانَ : رَاَيتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلكَلَامَ فَاِنْ كَانُوا اِنَّمَا رَوَوهُ وَدَوَّنُوهُ لِاَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية : ينير في خضره كالخلّب الاخزر (٢) ويروى : في تمر بلخ
(٣) وفي رواية : ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَعِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

---

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلكَلَامِ وَمُشتَرَكَاتِ ٱلأَلفَاظِ وَمَن نَظَرَ فِي ٱلمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلاِستِطرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنبَغِي أَن يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحكَمِهِ عِندَ مَن يَفهَمُهُ عَنهُ وَيَقبَلُهُ مِنهُ مِمَّن عَرَفَ ٱلمَعَانِي وَٱلأَلفَاظَ عِلمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلإِعرَابِ وَٱلمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَن ٱستَطرَفَ شَيئًا مِنهَا نَنظُرَ فِيهِ نَظَرًا غَيرَ كَامِلٍ أَوْ أَخَذَ مِن أَطرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِن أَطرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسمِهِ وَخَلَا مِن وَسمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَم يَفقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَم يَنقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِندَ مَن هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَت فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَت مَنفَعَةُ مَنطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلعَامِّيَ إِذَا كَلَّمتَهُ بِكَلَامِ ٱلعِلِّيَةِ سَخِرَ مِنكَ وَزَرَى عَلَيكَ. كَمَا رُوِيَ عَن بَعضِهِم أَنَّهُ قَالَ لِبَعضِ ٱلعَامَّةِ: بِمَ كُنتُم تَنتَقِلُونَ ٱلبَارِحَةَ (يَعنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلحَمَّالِينَ. وَلَو قَالَ لَهُ: (أَيشْ كَانَ نَقلُكُم) لَسَلِمَ مِن سُخرِيَتِهِ. فَيَنبَغِي أَن يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجهَلُونَ

وَأَمَّا قَولُهُ: (مَن تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلكَلَامِ الخ) هُوَ أَن يُسقِطَ مِنَ ٱلكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلكَلَامُ مَعَ إِسقَاطِهِ تَامًّا غَيرَ مَنقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثلُ مَا رُوِيَ عَن مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلعَبدِيِّ: مَا ٱلبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَن تَقُولَ فَلَا تُخطِئَ وَتُسرِعَ فَلَا تُبطِئَ. ثُمَّ قَالَ: أَقِلْنِي هُوَ أَن (لَا تُخطِئَ وَلَا تُبطِئَ). فَأَلقَى ٱللَّفظَتَينِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي أَبقَى غِنًى عَنهُمَا وَعِوَضًا مِنهُمَا.

فَامَّا اِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْالَفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْالَفَاظِ) فَهُوَ انْ يُرِيدَ ٱلْإِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِالْالَفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ اخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ ايَّهَا ارَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِالتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْاَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ اعْلَمُ انَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ افْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْإِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا انَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى ايِّ شَيْءٍ اشَارَ مِنْ افْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ افْعَلِ) اارَادَ انْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ اوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ اوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اوْ يَدْفَعَ اِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ انْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ احِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاحْوَجَ اِلَى انْ يَسْاَلَهُ عَمَّا ارَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَايْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ) . لِاَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَامَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِحُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْأَزْدِيِّ :

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا ارَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) اخَيْرًا ارَادَ امْ شَرًّا اِلَّا

اَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْـلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَاَمَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّام :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ اَنْ اُودِعَ ٱلثَّرَى   بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ اِذَا ٱنْقَلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ اِنْقِلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ اِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ . عَلَى اَنَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : اِنَّ اَكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ اَنْ يُحْمَدَ اَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَّا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ اُرِدْ عَيْبَ اَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَاِنَّمَا اَرَدْتُ ٱلْاِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْاِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ اِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ اَوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ اَبِي نُوَاس :

وَخُبْزٌ مَا يُخْبَزُ مِنْ آخَرٍ   مِنْـهُ وَالطَّابِنِ اَمْهَارُ (١)

ٱلْاَمْهَارُ هَا هُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْتَمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ اَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْاَلْمَـاسِ . اَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَاَصَابَ ٱلسَّجْعَ وَاَخْطَأَ ٱلْمَعْنَى . وَاَمَّا مَا بِنِيَّتِهِمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ اِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلْاِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِاَخٍ لَهُ اَرَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبز ما يخبز من بعده   منـهُ والطابن امهـار

لَمّا تصفّحتُ اخلاقك فوجدتُها مُباينةً لِمشاكلتي زائغةً عن قصد طريقتي صبرتُ عليها رياضةً لنفسي على الصبر لمساوئ اخلاق المعاشرين ولعلمي بكامن العدوانِ في جميع العالمين. والذي رجوتُ من مرمّةِ خصالك بما اقابلها به من التجاوز وأسحب عن سوء آثارها اذيال التغاضي. وانتَ مع ذلك لا تقوّم اعوجاج مذاهبك ولا يعطف بك الرأي على رشدك. فلمّا فنيت حيلتي فيك وانقطعت اسباب املي منك ورأيتُ الداء لا يزيد على التعهّد بالدواء الّا فسادًا والخرق على الترقيع الّا اتساعًا قدّمتُ اليأس منك على الرجاء فيك فاحتسبتُ ايامي السالفة في استصلاحي لك

وقوله : (وحقّ المعنى ان يكون له الاسم طبقًا) اي يكون الاسم طبقًا للفظ بقدر المعنى غير زائدٍ عليه ولا ناقص عنه فكان كالطبق على الاناء لا ينقص منه شيء

وقوله : (ولا يكون الاسمُ فاضلًا ولا مقصّرًا) فهذا داخلٌ في الاوّل من قوله : وحقّ المعنى ان يكون له الاسم طبقًا . ومثالُ الفاضل من اللفظ عن المعنى قولُ عروة بن اذينة :

وَاسقِ العدوّ بكأسِهِ واعلم لهُ ... بالغيبِ ان قد كان قبلُ سقاكها

واجزِ الكرامةَ من ترى ان لو له ... يومًا بذلتَ كرامةً لجزاكها

ومعنى هذا الكلامِ محصورٌ تحت ثلاثِ كلماتٍ : اجزِ كلًّا بفعلهِ . وكان السكوتُ لعروة خيرًا منهُ . ومن الكلامِ الفاضلِ عن معناه قولُ ابي العيالِ الهذليّ .

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَالَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ اِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ اِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَوَّلُ مُفْتَقِرًا اِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ مُحْتَاجًا اِلَى ٱلْاَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَاَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ اَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى اِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْاَعْيَادِ بِاَجْزَلِ ٱلْاَقْسَامِ وَاَوْفَرِ ٱلْاَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْاَنْصَافَ وَٱلْاَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَاِدْخَالُكَ اِيَّاهُ فِي اَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ اِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ



البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اما الاشياء التي تفعل التصديقات في هذه الصناعة فمنها ما هي صناعية وتلك هي التي وجودها لاختيارنا ورويتنا ونحن الفاعلون لها. ومنها ما هي غير صناعية وهي التي ليس وجودها لاختيارنا وروّيتنا مثل الشهود والتعذيب والعقود وما اشبه ذلك. والاشياء الصناعية التي نحن الفاعلون لها منها اشياء قد تقدم غيرنا فصنعها مثل الاحتجاج بالامثال السائرة التي قد وضعت واشتهرت ومنها ما نخترعها نحن عند القول في الشيء الذي فيه الاقناع ونستنبطها. فاما التصديقات التي نفعلها نحن ونخترعها فهي ثلاثة انواع : (احدها) اثبات المتكلم فضيلة نفسه التي يكون بها اهلاً ان يصدق وان يكون عند التكلم بهيئة في وجهه واعضائه شأنها ان توقع التصديق بالشيء المتكلم فيه مثل التؤدة والوقار وغير ذلك. والفضيلة التي شأنها هذا هي التي يعني ارسطو بالكيفية. والهيئة التي شأنها هذا هو الذي يعني بالسمت. وقد يدل على ان للفضيلة تأثيرا في التصديق ان الصالحين الفاضلين يصدقون سريعا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ : إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ . فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهِمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ . وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلِٱنْفِعَالِ فَقَطْ . وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ . فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا . وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْآنَ تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ . (وَثَانِيهَا)

مَعرِفَةُ ٱلأَخلَاقِ وَٱلفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعرِفَةُ ٱلاِنفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَنْ يَعرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلاِنفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلخُلُقِيَّةِ أَعنِي ٱلمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَولٌ مُستَوفٍ فِي أَجزَائِهَا إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيهِمْ بِهَا وَقَفُوا عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنظُرُ فِي كِلَا ٱلمُتَقَابِلَينِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيسَا يَنظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحدُودٍ نَظَرًا يَبلُغَانِ بِهِ ٱليَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱليَقِينِ

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة . وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)

الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجلِ اَنَّهُ مَعلُومٌ انَّ ٱلاَشيَاءَ ٱلمَنسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ ٱلصِنَاعَةِ اِنَّمَا يُقصَدُ بِهَا ٱلتَّصدِيقُ وَٱلاِعتِرَافُ مِنَ ٱلمُخَاطَبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِتَثبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِندَ ٱلمُعتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَاَينَا اَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِندَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثبُتُ بِهِ ٱلاَشيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصلُ ٱلتَّصدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحوَ مِنَ ٱلتَّصدِيقِ اَعنِي ٱلتَّصدِيقَ ٱلبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوعٌ مِنَ ٱلقِيَاسِ وَمَعرِفَةُ ٱلقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلمَنطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي اَجزَاءٍ مِنهَا. وَبَيِّنٌ انَّ ٱلَّذِي يَعرِفُ ٱلقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرفَ القياسَ الذي هو جنسُهُ . والذي يزيدُ على هذا فيعلمُ لماذا تُعملُ الضمائرُ والفصولُ التي بينَ الضميرِ وبينَ سائرِ المقاييسِ التي تُستعملُ في الصنائعِ الأُخرِ فهو اقدرُ من ذينك . والمعرفةُ بهذا كلِّه انَّما هو لصناعةِ المنطقِ . فإنَّ للقوَّةِ الواحدةِ بعينِها اعني للصناعةِ الواحدةِ بعينِها ان تعرفَ الشيءَ الذي هو حقٌّ والذي هو شبيهٌ بالحقِ والتصديقاتُ الخطبيَّةُ وان لم تكنْ حقًّا فهي شبيهةٌ بالحقِ وايضاً فانَّ الناسَ متهيِّئونَ بطبيعتِهم كلَّ التهيئةِ نحوَ الوقوفِ على الحقِ نفسِه . وهُم اكثرَ ذلكَ يؤمُّونَه ويقفون عنه . والمحمودات وهيَ التي تكونُ منها الضمائرُ شبيهةٌ بالحقِ من قِبلِ انَّها نائبةٌ عندَ الجمهورِ منابَ الحقِ . والشبيهُ بالحقِ قد يدخلُ في علمِ الحقِ الذي هو علمُ المنطقِ . واذا كانَ الامرُ هكذا فقدِ استبانَ انَّ قصورَ هؤلاءِ فيما تكلَّموا فيه من امرِ الخطابةِ انَّما كانَ من اجلِ انَّه لم يكنْ عندَهم علمٌ بالمنطقِ وانَّ سائرَ من تكلَّمَ في الخطابةِ ومَن يستعمِلُ الاقاويلَ الخطبيَّةَ فقط من غيرِ ان يتقدَّموا فيعرفوا هذهِ الاشياءَ التي هي عمودُ البلاغةِ انَّهم انَّما يتكلَّمونَ في اشياءَ تجري منَ البلاغةِ مجرى التزيينِ والتنميقِ الذي يكونُ في ظاهرِ الشيءِ وصفحتِه لا في الاشياءِ التي تتنزَّلُ منها منزلةَ ما بهِ قِوامُ الشيءِ ووجودُه وانْ كانَ قد يُظنُّ بما فعلوا من ذلكَ انَّهم قد بلغوا الغايةَ منَ الاقاويلِ الاقناعيَّةِ وجروا في ذلكَ على طريقِ الصوابِ والعدلِ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوصِلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال: (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم توخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلَّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَاتِّيهَا لِاَنْ يُسْتَعْمَلُ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ اَقَلَّ عُمُومًا كَانَ اَحْرَى اَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ اَعْنِي ٱلْإِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاَقَلِّ وَٱلْاَكْثَرِ (*) فَاِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمِّيًّا

تُعْمَلُ مِنهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا اِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَاِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَامَّا ٱلأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَاِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَاِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ هٰكَذَا فَاِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ اِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَامَّا ٱلأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطَبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطَبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَكْثَرُ ذٰلِكَ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ اَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنهَا عَامًّا لِلأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَاَلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ: إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ. وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ. فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ. وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ. فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ: (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ.

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول: (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفته وسببٌ لها فلا بد ان تتقدمها. (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله. (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك: الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة. (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك: الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة. (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز). (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ اِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَاِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَاِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَاِلَّا فَنَاقِصٌ . وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَاِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَاِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَاِلَّا فَلَا .

اي لولا كونهُ مساويًا (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقًا او من وجه (فلم يكن مانعًا) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطردًا) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضًا. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص اما مطلقًا او من وجه (فلم يكن جامعًا) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكسًا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولايلتبس شيء منها بغيرها . . . (ولا بد فيهِ) اي في المعرَّف (من مميز مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًا سمي) المعرَّف (حدًّا) (والا سمي رسمًا. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب . (والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفَ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شِرْكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ . وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام تحصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره. (وبالجملة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه بصدد الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَإِمَّا إِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا إِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا إِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَإِنْ تَصَادَقَا فَإِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَإِلَّا فَإِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَإِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِلَى نَوْعٍ مِنْ

ٱلأَنواعِ فيجعلهُ جنسًا تعظيمًا لهُ وتفخيمًا لأمرهِ بعدَ أنْ يحصرَ جميعَ أقسامهِ. وٱلمرادُ عندهُمْ بالنوعِ أعمُّ منْ أنْ يكونَ صادقًا على متعددٍ ذهنًا كما هوَ ٱلنوعُ ٱلمعهودُ عندَ علماءِ ٱلمنطقِ أوْ لا يصدقُ إلَّا على فردٍ واحدٍ كالجزئيِّ ٱلمعروفِ عندهُمْ. وٱلمرادُ بالكليِّ ٱلجنسُ وهوَ ما صدقَ على متعددٍ ٱختلفتْ حقيقةُ أفرادهِ. ومثالُ ذلكَ عندهُمْ كقولِ ٱلمتنبي:

هيَ ٱلغرضُ ٱلأقصى ورؤيتكَ ٱلمنى
ومنزلكَ ٱلدنيا وأنتَ ٱلخلائقُ

فقدْ قصدَ تعظيمَ ممدوحهِ فجعلَ منزلهُ ٱلذي هوَ جزئيٌّ كليًّا وهوَ ٱلدنيا وجعلَ ذاتهُ ٱلتي هيَ جزئيةٌ كليةً وهيَ ٱلخلائقُ. وأمَّا حصرُ أقسامِ ٱلجزئيِّ فلأنَّ ٱلعالمَ عبارةٌ عنْ حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ. وٱلمنزلُ شاملٌ لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلجنسُ في ٱللغةِ ٱلضربُ في كلِّ شيءٍ وهوَ أعمُّ منَ ٱلنوعِ. يقالُ: ٱلإنسانُ نوعٌ وٱلحيوانُ جنسٌ. ويُرادُ بهِ عندَ أهلِ ٱلعربيةِ ٱلماهيةُ. وكلُّ ما دلَّ على شيءٍ. وعلى كلِّ ما أشبههُ وبالنظرِ إلى

هٰذَا قِيلَ ٱسْمُ ٱلْجِنْسِ ٱسْمٌ مَوضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ أَيْضًا : ٱلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا أُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْأَعَمِّ ٱلْعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقْسَمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارَكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارَكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارَكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلعِلِّيَّةَ وَٱلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَالْإِمْكَانِ وَٱلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلْمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ ٱلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلْقُوَّةِ كَٱلْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلْمَادَةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِٱعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا ٱلصُّوَرُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاُسْطُقُسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْوُجُودِ. وَٱلْاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلمُرَكَّبِ . . . وَٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ . أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلحَطَبِ لِلْإِحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلحَطَبِ بِٱلإِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوَّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا . وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ . عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا . وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا . وَقَالَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ مَسْعُودٍ : إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذَٰلِكَ . قَالَ : يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا . فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا . (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنَ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ . وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ :

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ   وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ   يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

ٱبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا   وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ   كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ   شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عُقْبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرُ   كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي
أَنْتَ رَبِّي وَإِلٰهِي   رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ . وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ . وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ . وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدَكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ . وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ . فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا أَعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لَوْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ . وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَالِعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إنَّ الخَطِيبَ الحَرِيَّ بِالإِرْشَادِ مَنْ قَدِ اسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمسُ خِصَالٍ: (إِحداهُنَّ) عَقلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ التَّجَارِبِ تَصِحُّ الرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ: اسْتَرْشِدُوا العَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَسَنِ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ: احْذَرُوا مَشُورَةَ الجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ العَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ إِلَيْكَ مَكْرُ العَاقِلِ وَتَوْرِيطُ الجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ التَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ الدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى العَقْلِ وَالعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّجَارِبِ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: الأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ الأَسْتَارِ الكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: التَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَالعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: مَنِ اسْتَعَانَ بِذَوِي العُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ المَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو الأَسْوَدِ الدِّيلِيُّ:

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذَاكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمَحِّضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَالِمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَالْخَصلةُ الْخَامِسَةُ) انْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَشَار غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ الْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَالْهَوَى صَادٌّ وَالرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ الْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ الْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا

وَيُرْدِي الْهَوَى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ

وَيُحْمَدُ فِي الْأَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ

وَيُعْذَلُ فِي الْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا اسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ اسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ اسْلَمُ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ اقْرَبُ لِخُلُوصِ الْفِكْرِ وَخُلُوِّ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : إِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللّٰهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَمَا اسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ احَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ وَإِذَا ارَادَ اللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ ابِي طَالِبٍ : الْاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِالْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ الرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْاَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْاِنْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْاِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِي ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى اِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ اِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَنْبَخِرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ اِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْاَذَى. وَاِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ اِلَى ٱلدُّخُولِ فِي اَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْاَوْصَابِ. وَمَا يَنْتَظِرُهُ مِنَ ٱلْاَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ اِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ اِلَّا اِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنسَانِيَّةِ . وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِلْانتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلْاَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْاَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ . فَيَصْعَدُ ٱلْإِنسَانُ عَلَيْهِ وَيَنظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ . فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ . وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ . وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْاَمَانِي . وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي . فَتَشْمُلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ . وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلْاُمُورِ . فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْاَفْرَاحِ . وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْاَقْدَاحِ . فَيَنْسِمُ مَدَى ٱلْاَوْقَاتِ . وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ . اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ . وَمُحْتَفًا بِأَوْهَامِ ٱلْاَعْمَالِ . وَلَا يَنظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ . وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ . هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ . وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ . وَهٰكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ . وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ . اِلَى اَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ . وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْاَجَلِ . وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ . وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْاَمَلِ . حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ . حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْاَمْرِ . فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا . مُنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ . مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَاَهْوَائِهِ . مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ . وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِّ . وَتَشُبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ . وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْاَهْجَاسِ . فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْاَقْدَارِ وَٱلْاَيَّامِ . وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْاَوْهَامِ . فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اَوْجِ ٱلْاَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ .

وَطورًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيباتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتراحِ وَٱلْحَسراتِ. يرى ٱلعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَندفعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلبَعضِ طَمِعَ بِٱلكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضغَةً فِي أَفوَاهِ ٱلطَّامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلقَوَامِعُ. وَذَٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلحِدثَانِ. وَمُسقِطًا لِإِصَابِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَينَ ذُبُولٍ وَٱفتِرَارٍ. وَلَا يَبرَحُ بَدرُ هٰذَا ٱلعَصرِ ٱلبَاهِي بَينَ خُسُوفٍ وَٱسفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنثُرَ ٱلشَّيخُوخَةُ تَاجَ تِلكَ ٱلزَّهرَةِ. وَيَصفَعَ ٱلهَرَمُ وَجهَ هَاتِيكَ ٱلقَمرَةِ. حَيثُمَا يَسقُطُ ٱلشَّبَابُ مِن فَرشِهِ. وَيَرتَفِعُ ٱلمَشِيبُ عَلَى عَرشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلإِنسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمرِهِ سَيرَ ٱلمُسَافِرِ فِي ٱلقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبلُغَ رَابِعَ ٱلأَدوَارِ. وَهُوَ دَورُ ٱلدُّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمكَنَهُ ٱلخَلَاصُ مِن لُصُوصِ ٱلحَوَادِثِ. وَٱلمَنَاصُ مِن أُسدِ ٱلكَوَارِثِ. وَنَهبَةِ ٱلأَعرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلأَمرَاضِ. فَيَلبَثُ هُنَاكَ مَنهُوكًا مِن تَعَبِ ٱلمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأثِيرِ. إِذ يَعُودُ مُنحَنِيًا تَحتَ أَحمَالِ ٱلحَيَاةِ وَأَثقَالِهَا. وَمَرضُوضًا مِن صَدَمَاتِ ٱلدُّنيَا وَأَهوَالِهَا. فَتَصمُتُ ضَوضَاءُ حَوَاسِهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخرَسُ رَنِينُ أَنفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَيَجُفُّ فِكرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوقُهُ. وَيَكثُرُ شَوقُهُ. وَيَبخَلُ حَتَّى بِٱلفَلسِ. وَيَزِيدُ حِرصُهُ عَلَى ٱلنَّفسِ. وَيَجُودُ بِٱلقَلسِ. فَإِذَا ٱلتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَت لَهُ ٱلأَشيَاءُ أَشبَاحَ أَحلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيفِ وَالخَيالِ. فَيَضحَكُ عَلَى الجَمِيعِ. ضحك الطفل الرَّضيع. اما اِذَا التفتَ اِلَى الامامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الاَيَّامِ. حَنَّ اِلَى الوُجُودِ. وَهامَ بِحُبِّ الخُلُودِ. وَلا يَزالُ المَاضِي يَدفَعُهُ. وَالحَاضِرُ يردَعُهُ. وَالمُستَقبِلُ يُطمِعُهُ. حتَّى تَختَطِفَ عَامَةَ نَفسِهِ بُزاةُ المَنِيَّةِ. وَتَسلِبَهُ كُلَّ بُغيَةٍ وَاُمنِيَةٍ. فَيَهبِطَ هُبُوطَ البُنيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبرِ النِّسيَانِ. حَيثُمَا تَستَرجِعُ الكُلِّيَّاتُ جُزئِيَّاتِهَا. وَتَستَرِدُّ المَجمُوعَاتُ مُفرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الخَطِيبَ اِذَا مَا اَرادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسنَ سِيَاسَةِ نَفسِهِ فِي اُمُورِهِ فَليَتَوَخَّ طِبَاعَهُم وَتَلَوُّنَ اَخلَاقِهِم وَتَبَايُنَ اَحوَالِهِم. قَالَ اَفلاطُونُ: لِكُلِّ اَمرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ اِنسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِم وَالتَمِسْ مِنَ الاُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنفَعُ الخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهلِ طَبقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوقَهُ عَلَى سَبِيلِ الاِيجَازِ وَالاِختِصَارِ. عَلَى اَنَّهُ لَا يَمنَعُ قَولُنَا هٰذَا مِنْ ذِكرِ مَا يَختَصُّ بِاستِعمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنهُم فِي وَقتٍ

دُونَ وَقْتٍ ومعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمكِنُهُ
اَنْ يَستَعمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ اَحدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ
ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنَ ٱلنَّاس مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفسِهِ وَتَامَّلَ اَحوَالَهَا وَاَحوالَ غَيرِهِ
مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ .
وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعلَى مَنزِلًا مِنهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ
دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوضَعُ مِنهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعْظَمَ مَثَلًا
وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنزِلَةً
اَعلَى مِنْ مَنزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَامَّلَ حَالَهُ نِعمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفضُلُهُ
بِنَوْعٍ مِنَ ٱلفَضِيلَةِ ٱلفَضلِيَّةِ اِذْ لَيسَ فِي اَجْزَاءِ ٱلعَالَمِ مَا هُوَ
كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ
فِي نفسِهِ اَشيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنتَفِعُ
ٱلخَطِيبُ بِٱستِعمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ
اَيضًا اِنَّ اَنفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسلُكُهَا ٱلخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَامُّلُ اَحوَالِ
ٱلنَّاسِ وَاَعمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنهَا مِمَّا سَمِعَهُ
وَتَنَاهَى اِلَيهِ مِنهَا وَاَنْ يُمعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا
وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنهَا . ثُمَّ لِيَجتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ
ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجتَهِدُ
فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا
مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ اَيضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْاَشخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَٱلْأُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلْعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ أَنْوَاعِ ٱلْغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرْشِدُ ٱلْجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَإِنَّهُ مَتَى مَا أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبَهِيمِيُّ. وَإِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ أَضْعَافُ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ ٱلْخَطِيبَ لَا يَنْبُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى ٱلْجُمْهُورَ مَائِلًا إِلَى أَمْرٍ مَحْمُودٍ أَوْ أَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ إِلَى ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرِ ٱلْمَحْمُودِ ٱلَّذِي يَلْقَاهُ إِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمِ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلْفُرْصَةَ لِذَٰلِكَ. وَإِذَا يَلْقَاهُ ٱلْأَمْرُ ٱلْمَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجَنُّبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلْاعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثْلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ جُلِّهَا وَدِقِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا مَوْضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَإِرْشَادِ ٱلْجُمْهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذَٰلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَٰلِكَ وَإِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يُجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

يجب عليه ان يكون ملازما لما هو في صدده مواظبا على ما فوّض اليه ولا يخشى الملال وخصوصا من الملوك. وان يكون مجتهدا في طلب وجوه حسان لكل ما يطلبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجها جميلا يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوّض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقدارا من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجرى معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار. . وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلح في السؤال ولا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها. . وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالا للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأبيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ ٱلْحَالُ بِمُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ ٱلِٱسْتِخْدَامَ وَٱلِٱسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ ٱلْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ ٱلنَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِٱسْتِعْمَالِهَا ٱلْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا ٱلْمَرْءُ مَعَ ٱلْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ ٱلْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَٱلْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلْأَصْفِيَاءُ ٱلْمُخْلِصُونَ فِي ٱلصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجِيءُ ٱلْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ ٱلْجُهْدِ فَإِنَّ ٱلصَّدِيقَ زَيْنُ ٱلْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ أَيِ ٱلْأَصْدِقَاءُ فِي ٱلظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱسْتِمَالَتِهِمْ وَٱلصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ ٱلظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذُهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَإِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ ذٰلِكَ
يُرْجى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ
الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . امَّا الْاَكْفَاءُ الْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ
وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا
بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ النُّصَحَاءُ الَّذِينَ
يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ
وَيَعْزِمَ على قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ
اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ
عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَإِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى
اِنْفَاذِ الْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ
مَا بَيْنَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ
وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَإِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ
كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ
النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا
يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ
وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْأَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ
ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ .
وَمِنْهُمْ اَهْلُ الْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ
تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ
وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَأَنَا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُوَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

انَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفعَلُ ٱلْإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِـلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِاجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّرِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلْاِحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلْاِفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلْاِنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلْاِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

---

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ اَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ اِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ اَنْ تُرْشَدَ اِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ اِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ اَو نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ اِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْإِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ اِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ اِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ اِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ . فَاَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَاِنَّهَا وَاِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ اَنْ يَصِيرُوا اِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا اِلَيْهَا بِٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّاَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْاَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ . وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْاَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَاْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ مِنهَا (ٱلعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبطُ ٱلنَّفسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى ٱلاِكتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ ٱلجَسَدِ وَيَحفَظُ صِحَّتَهُ فَقَط وَٱجتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصدِ ٱلاِعتِدَالِ . وَانْ يَكُونَ مَا يُقتَصَرُ عَلَيهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلوَجهِ ٱلمُستَحَبِّ ٱلمُتَّفَقِ عَلَى ٱلاِرتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوقَاتِ ٱلحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنهَا وَعَلَى ٱلقَدرِ ٱلَّذِي لَا يُحتَاجُ اِلَى اكثَرَ مِنهُ . وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلعِفَّةِ

(وَمِنهَا اَيضًا ٱلقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلاِقتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلعَيشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلمَعَاشِ وَتَركُ ٱلحِرصِ عَلَى ٱكتِسَابِ ٱلاَموَالِ وَطَلَبِ ٱلمَرَاتِبِ ٱلعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَاِيثَارِهِ وَٱلمَيلِ اِلَيهِ وَقَهرِ ٱلنَّفسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلتَّقَنُّعِ بِٱليَسِيرِ مِنهُ . وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مُستَحسَنٌ مِنْ اَوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَامَّا ٱلمُلُوكُ وَٱلعُظَمَاءُ فَلَيسَ ذٰلِكَ مُستَحسَنًا مِنهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ . فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ الهَزْلِ القَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ اهلِهِ وَحُضُورِ مجالِسِهِ وَضَبْطُ اللِّسانِ عَنِ الفُحْشِ وَذِكْرِ الخَنَا وَالمزحِ وَالسَّخِيفِ وَخاصَّةً في المحافلِ وَمجالسِ المحتشمِينَ اِذْ لا ابَّهَةَ لِمَنْ يُسرِفُ في المزحِ وَيُفحِشُ فيهِ . وَمِنَ التَّصَوُّنِ الانقباضُ عَنْ ادنياءِ النَّاسِ وَاصاغِرِهِمْ وَمصادقَتِهِمْ وَمجالستِهِمْ وَالتَّحرُّزُ مِنَ العِيشَةِ الزَّرِيَّةِ وَاكتسابِ الاموالِ مِنَ الوُجُوهِ الخسيسَةِ وَالترفُّعُ عَنْ طَلَبِ الحاجاتِ مِنْ لِئامِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ وَالتَّواضُعِ لِمَنْ لا قدرَ لَهُ وَالإِقلالُ مِنَ البُرُوزِ اعني الطَّوافَ مِنْ غيرِ اضطرارٍ وَالتَّبذُّلَ بالجُلُوسِ في الاسواقِ وَقوارعِ الطُّرُقِ مِنْ غيرِ حاجةٍ حيثُ انَّ الاكثارَ مِنْ ذلكَ لا يَخلُو مِنَ العيوبِ فَانَّ اعظَمَ النَّاسِ قدرًا كَما قِيلَ مَنْ ظَهرَ اسمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنها الحِلْمُ) وَهُوَ تركُ الانتقامِ عِندَ شِدَّةِ الغضبِ مَعَ القُدرَةِ على ذلكَ وَهٰذا الخالُ محمُودٌ ما لم يُؤَدِّ اِلى ثَلمِ جاهٍ اَوْ فسادِ سياسَةٍ وَهُوَ بالملوكِ وَالرُّؤَساءِ احسَنُ لانَّهُمْ اقدرُ على الانتقامِ مِنْ مُغضِبِيهِمْ . وَلا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلمُ الصَّغيرِ على الكبيرِ وَانْ كانَ قادِرًا على مُقابَلَتِهِ في الحالِ فانَّهُ وَانْ امسَكَ عَنْهُ فَانَّما يُعَدُّ ذلكَ مِنهُ خَوفًا لا حِلْمًا

(وَمِنها الوَقارُ) وَهُوَ الامساكُ عَنْ فُضُولِ الكَلامِ وَالعَبَثِ وَكَثْرَةِ الاشارَةِ وَالحَرَكةِ فِيما يُستَغنى عَنِ التَّحرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ الغضبِ وَالاصغاءُ عِندَ الاستفهامِ وَالتَّوقُّفُ عِندَ الجوابِ وَالتَّحفُّظُ عِندَ السُّرعَةِ وَالمبادَرَةِ في جميعِ الامورِ . وَمِنْ قبيلِ الوَقارِ ايضًا الحَياءُ وَهُوَ غَضُّ الطَّرْفِ وَالانقباضُ مِنَ الكَلامِ حِشمَةً لِلمُستَحْيَينَ مِنهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلوُدُّ) وَهُوَ ٱلمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلانْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلوَقَارِ وَٱلأُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَامَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى ارَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاصَاغِرِهِمْ وَاهْلِ ٱلخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالِ مُنَاسِبٍ لِلفَضَائِلِ وَهُوَ اوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاثْبَتُهُ فَامَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا افْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خَلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَامَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلْجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلانْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ ابْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ . وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاه الا ان انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشد لانه متى عرف منهم قلة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عما يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه ورد ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السر) وهذا الخلق مركب من الوقار واداء الامانة . فان اظهار السر من فضول الكلام . وليس بوقور من تكلم بالفضول والفضولي ناقص الشرف . فكما ان من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سرا فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضا . وكتمان السر محمود من جميع الناس وخاصة من يصحب السلطان واولياء الامور فان اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرز من الاعجاب والكبر . ولا يحمد التواضع الا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم واما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لان الضعة هي محلهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(وَمِنْهَا اَلْبِشْرُ) وَهُوَ اِظْهَارُ اَلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ اَلْاِنْسَانُ مِنْ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ وَاَصْحَابِهِ وَاَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَاَلتَّبَسُّمُ عِنْدَ اَللِّقَاءِ. وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ اَلْمُلُوكِ وَاَلْعُظَمَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّ اَلْبِشْرَ مِنَ اَلْمُلُوكِ وَاَلْوُلَاةِ تَتَاَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ اَلرَّعِيَّةِ وَاَلْاَعْوَانِ وَاَلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا اِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ اَلْمُلُوكِ اَوِ اَلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرَعِيَّتِهِ لِاَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا اَدَّى اِلَى فَسَادِ اَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ اَللَّهْجَةِ) وَهُوَ اَلْاِخْبَارُ عَنِ اَلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ اَلْاِنْسَانِ اِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ارْتَكَبَهَا فَاِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ اَلْعَارِ وَاَلْمَنْقَصَةِ اَلْبَاقِيَةِ اَللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ اِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ اَسْتَجَارَهُ فَاَخْفَاهُ وَلَا اِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَاَلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ اَلْمُلُوكِ وَاَلْعُظَمَاءِ اَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ اَلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ اَلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ اَلنِّيَّةِ) وَهُوَ اَعْتِقَادُ اَلْخَيْرِ بِجَمِيعِ اَلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ اَلْخُبْثِ وَاَلْغِيلَةِ وَاَلْمَكْرِ وَاَلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ اِلَّا اَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ اَلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ اَلْحُكْمُ اِلَّا بِاَسْتِعْمَالِ اَلْمَكْرِ وَاَلْحِيَلِ وَاَلْاِغْتِيَالِ مَعَ اَلْاَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ اَسْتِعْمَالُهُ مَعَ اَخِصَّائِهِمْ وَاَصْفِيَائِهِمْ وَاَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَانَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَامَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْاوْلِيَاءِ فَامْرٌ وَاجِبٌ لِانَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي اِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْاحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْاعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلْانْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْاقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ اِلَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلْاسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَاعْوَانِهِمْ ٱلْيَقُ وَاحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَاكْثَرُ ٱلنَّاسِ اخْطَارًا وَاحْوَجُهُمْ اِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ اِذًا مِنْ اخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ اِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلْاجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي اِلَى دَرَجَةٍ اعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ اِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ اوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَامَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَٱلِاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتَ ٱلْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ . فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَامَّا ٱلْاخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَانَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِانْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَاِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْادْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْامْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْاعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ اِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ. فَاِنَّ كَثْرَةَ ٱلْامْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْاعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَاعْوَانِهِمْ وَاعْدَائِهِمْ وَاضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ اطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلْاكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْاعْرَاضِ وَٱلْمُزَاحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْاسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكَةُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلْاِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنفَعَةٌ .وهُوَ بِالْمُلوكِ وَالْحُكَّامِ اَقبَحُ وَاَضَرُّ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُم بِالْغَدْرِ لَمْ يَرْكَنْ اِلَيْهِ اَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ اِنْسَانٌ فَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنهَا اَلْخِيَانَةُ) وَهِيَ اَلاِسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ اَلاِنسَانُ عَلَيْهِ مِنَ اَلْاَموالِ وَالْاَعْرَاضِ وَالْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ. وَمِنَ اَلْخِيَانَةِ اَيضًا طَيُّ الْاَخْبَارِ اِذَا نُدِبَ اَلْاِنسَانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ اَلرَّسَائِلِ اِذَا حَمَلَهَا وَصَرَفَهَا عَنْ وَجْهِهَا . وَهٰذَا اَلْخُلُقُ اَعْنِي اَلْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَيَثْلِمُ اَلْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ اَلْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا اِفْشَاءُ اَلسِّرِّ) وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ اَلْخُرْقِ وَالْخِيَانَةِ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَالسِّرُّ اَحَدُ اَلْوَدَائِعِ وَاِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا اَلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ اَلْمُلُوكَ وَاَولِيَاءَ اَلْاُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ . وَمِنْ قَبِيلِ اِفْشَاءِ اَلسِّرِّ اَيضًا اَلْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَهِيَ اَنْ يُبَلِّغَ اِنسَانٌ اِنسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا اَلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ اَيضًا بِمَا يَسْمَعُهُ اَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ اِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِاَنَّ فِي ذٰلِكَ اِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ اَلْمُبَلِّغِ وَالْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ اَلشَّرِّ

(وَمِنْهَا اَلْكِبْرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ اَلْاِنسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ اَلْفَضَائِلِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْغَارُهُم وَالتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ اَلتَّوَاضُعُ لَهُ . وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِاَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُبْغِضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْجُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ ٱلْمَخَاوِفِ وَتَمْكِينُهَا فِي ٱلْعَقْلِ بِدُونِ طَائِلٍ وَعَدَمُ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللُّزُومِ وَٱلرُّعْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَوِي ٱلْأَمْرِ عِنْدَ ٱلِاقْتِضَاءِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْجُنُودِ وَأَصْحَابِ ٱلْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلْحَسَدُ) وَهُوَ ٱلتَّأَلُّمُ مِمَّا يَرَاهُ ٱلْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلِاجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ ٱلْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا ٱلْجَزَعُ عِنْدَ ٱلشِّدَّةِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْجُبْنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا نَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ لِلْحِيلَةِ عِنْدَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلشِّدَّةِ أَوْ لِٱسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ أَوِ ٱجْتِلَابِ مُعِينٍ لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا صِغَرُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَقُصُورُ ٱلْآمَالِ عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَاتِ وَٱسْتِكْثَارُ ٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱسْتِعْظَامُ ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْعَطَايَا وَٱلِاعْتِدَادُ بِذٰلِكَ وَٱلرِّضَى بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلِٱعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْجَوْرُ) وَهُوَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ كَأَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا ٱلْحَلَالِ وَٱلْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ ٱلْحُقُوقِ وَفِعْلِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى ٱلْقَدْرِ

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلْازْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَأَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيوخُ وَاهلُ ٱلعِلمِ وخاصَّةً ٱلخُطَبَاءِ وَٱلوَاعِظُونَ ورُؤَسَاءُ ٱلدِّينِ فَانَّ ٱلتَّصَنُّعَ بِٱلزِّينَةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنْهُمْ وَٱلمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبسُ ٱلخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ ٱلصَّلاةِ

(وَمِنْهَا ٱلمُجَازَاةُ عَلَى ٱلمَدحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمدَحُ ٱلإِنسَانَ وَيَشكُرُهُ فِي ٱلمَجَالِسِ وَٱلمَحَافِلِ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ لِأَنَّهُ يَدْعُو ٱلمَادِحَ إِلَى ٱلإِزدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ ٱلمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى إِلَى ٱلدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ ٱلجَمِيلِ. وَامَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ ٱلمَدحِ مِنَ ٱلمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلمَلَقِ وَحُبُّ ٱلمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. امَّا إِيثَارُهُمُ ٱنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَنَاوُلَ ٱلنَّاسِ لَهُ وَبَقَاءَهُ بَعْدَهُمْ فَانَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ ٱلمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو إِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى ايضًا إِلَى ٱلدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ. امَّا اصَاغِرُ ٱلنَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ ٱلمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِأَنَّ ٱلمَادِحَ إِذَا مَدَحَ ٱلدَّنِيءَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَإِذَا اجَازَهُ اعْتَقَدَ انَّهُ اخَذَ مِنْهُ تِلْكَ ٱلجَائِزَةَ بِٱلحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ إِلَى مُجَازَاةِ ٱلمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا ٱلشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ إِلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَاهلِ ٱلمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اجْمَلَ بِهِمْ وَالْيَقَ

(وَمِنْهَا ٱلزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلأَموَالِ وَٱلإِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِٱكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِٱدِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معايبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلمحظورَاتِ وَٱلشهوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلأَمْوَالِ فَٱلفقيرُ ٱلمُعسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلغِنَى مُكسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلفَقرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيُنْتِجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلخَلِيقُ بِٱلإِنسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلمحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلقَولِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقَةِ ٱلمُكتَسَبَةِ بِٱلأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلمَالَ قَدْ تَلحَقُهُ ٱلمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلمُعظَّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعظَّمُ مِنْ أَجلِهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلفَاضِلُ ٱلمُهَذَّبُ ٱلأَخلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعظَّمٌ مِنْ أَجلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريّا بن عدي)

وبما انّ الرّاغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه اذا نبه على خلق مذموم وجد فيه واحب اجتنابه ربّما صعب عليه الانتقال عنه من اول وهلة وربّما لم ينل التخلص منه ولم يطاوعه طبعه او ربّما استحسن ايضاً خلقاً محموداً لا يجده لنفسه وآثر التخلق به لم تسمح له عادته ولم يصل الى مراده. لذلك وجب ان نرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقاً يتدبّرون بها ويتدرّجون فيها حتّى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنّب الاخلاق القبيحة والتفرغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتعمّل لاعتيادها لكي يمكن للراغب ان يتخلّق بها فنقول:

انه لامر مقرّر ان سبب اختلاف الاخلاق في النّاس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم وهي الشهوانيّة والغضبيّة والناطقة وانّ اصلاح الاخلاق هو تذليل الشهوانيّة منها والغضبيّة وتمييز

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريّا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيره. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور منوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ ٱلمَحمُودِ مِنْ أَفعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِاستِعمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

أَمَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ إِلَى قَمعِهَا أَنْ يَتَذَكَّرَ ٱلإِنسَانُ فِي أَوقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ إِلَى لَذَاتِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفسُهُ إِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُستَحسَنٌ مِنْ جِنسِ تِلكَ ٱلشَّهوَةِ وَيُتَّفَقُ عَلَى ٱرتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ. فَإِنْ لَمْ تَنكَسِرْ شَهَوَاتُهُ بِعِلَلِهَا وَبَعدَهَا فَإِنْ سَكَنَتِ ٱنتَصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ ٱلفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَإِذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ أَلِفَتْ هٰذِهِ ٱلعَادَةَ وَتَأَنَّسَتْ بِهَا وَٱستَوحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنبَغِي لِمَنْ أَرَادَ قَمعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ أَنْ يُكثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَأَهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَأَهلِ ٱلعِلمِ. فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعرُوفًا بِٱلعِفَّةِ وَيَستَزرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ إِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوقِهِمْ لِئَلَّا يَستَزرُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقُ بِرُتبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ. وَيَنبَغِي لَهُ أَيضًا أَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَأَخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَأَهلِ ٱلوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَنْ يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَتِهِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ. وَأَكثَرُ مَا

يَجِبُ لَهُ اَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلسُّكْرَ فَإِنَّهُ مِمَّا يُثِيرُ نَفْسَهُ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ وَيُقَوِّيهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى ٱلتَّهَتُّكِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةِ بِهَا . وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُقِلَّ مِنِ ٱسْتِمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْمُتَصَنِّعَاتِ وَٱلشُّبَّانِ ٱلظُّرَفَاءِ فَإِنَّ لِلسَّمَاعِ قُوَّةً عَظِيمَةً فِي اِثَارَةِ ٱلشَّهْوَةِ . . . اَمَّا ٱلطَّعَامُ فَيَنْبَغِي اَنْ تَعْلَمَ اَنَّ غَايَتَهُ هُوَ ٱلشِّبَعُ لِدَفْعِ اَلَمِ ٱلْجُوعِ . وَفَاخِرُ ٱلطَّعَامِ وَدَنِيئُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبِعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَجْوِيدِ ٱلطَّعَامِ ٱلْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَائِدَةٌ . وَٱلْاَوْلَى هُوَ ٱلتَّوَسُّطُ فِي اَنْوَاعِ ٱلْمَآكِلِ وَاَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ وَٱعْتَادَهُ وَٱلِفَهُ . . . وَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ اِلَى ٱلْاِقْتِصَارِ فِي ٱلطَّعَامِ هُوَ اَنْ يُبَادِرَ ذُو ٱلشَّهْوَةِ اِلَى اَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ ٱلْمَأْكَلِ فَاِنْ كَانَ ٱلْمُشْتَهَى ٱلَّذِي تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ حُلْوًا فَاِلَّا اَيَّ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا وَاِنْ كَانَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَاِلَّا مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ ٱلطَّعَامِ فَاِنَّهُ اِذَا تَنَاوَلَ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ ذٰلِكَ تَكْرَارًا وَشَبِعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ نَفْسُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَحَبَّ ٱلْعِفَّةَ اَنْ يَكُونَ اَبَدًا مُتَيَقِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ ٱلْفَاجِرَ وَٱلنَّهِمَ وَٱلشَّرِهَ وَٱلْمُتَهَتِّكَ مِنَ ٱلْقَبَاحَةِ وَٱلْعَارِ فِي ٱلدُّنْيَا جَاعِلًا ذٰلِكَ دَيْدَنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ . فَاِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةَ وَتَشْتَاقُ اِلَى ٱلتَّعَفُّفِ وَٱلْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ ٱلْعُدُولِ عَنِ ٱلْفَوَاحِشِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا . فَهٰذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ ٱلنَّفْسِ

اِلَى قَهْرِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَمْعِهَا أَعْنِي طَرِيقَ ٱلْإِرْتِيَاضِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ ٱلدَّنِيئَةِ

فَأَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَإِنَّ طَرِيقَ قَمْعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ ٱلْإِنْسَانُ هِمَّتَهُ اِلَى تَفَقُّدِ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلَّذِينَ يُسْرِعُ اِلَيْهِمِ ٱلْغَضَبُ فِي اَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدَّتِهِمْ وَيُلَاحِظَ تَسَفُّهَهُمْ عَلَى اَخْصَامِهِمْ وَعُقُوبَتَهُمْ لِخَدَمِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ فَإِنَّهُ يُشَاهِدُ اِذْ ذَاكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْنَفُ مِنْهُ ٱلْخَاصُّ وَٱلْعَامُّ وَانْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جِنَايَاتِ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ وَوُثُوبِ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ اُولٰئِكَ . فَإِنَّهُ اِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ ٱسْتَخَفَّهُ مِنْهُمْ فَتَنْكَسِرُ بِذٰلِكَ سَوْرَةُ غَضَبِهِ وَيُحْجِمُ عَمَّا هَمَّ بِٱلْاقْدَامِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّبِّ وَٱلْوُثُوبِ فَانْ لَمْ يَكُفَّ بِٱلْكُلِّيَّةِ قَصَّرَ وَلَمْ يَنْتَهِ اِلَى غَايَةِ ٱلْفُحْشِ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ اَنْ يَقْهَرَ نَفْسَهُ ٱلْغَضَبِيَّةَ اَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ اَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ اَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ ٱلْجَانِي مَا ٱلَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ اَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ فَإِنَّهُ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ يَعْتَقِدُ اَنَّ دَرَكَ تِلْكَ ٱلْجِنَايَةِ وَذٰلِكَ ٱلْاَذَى يَسِيرٌ جِدًّا فَاِذَا ٱعْتَقَدَ ذٰلِكَ كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي ٱلْمُؤْذِي بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا يُسْرِفُ فِي ٱلْانْتِقَامِ وَلَا يُفْحِشُ فِي ٱلْغَضَبِ فَمَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ دَائِمًا وَجَعَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ ٱلسُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ اِلَيْهِ ٱلْغَضَبُ لَمْ يُبْعِدْ اَنْ تَنْكَسِرَ نَفْسُهُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَتَنْقَادَ اِلَيْهِ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا

ٱلعَمَلِ مُدَّةً صارَ لَهُ خُلقًا وعادَةً

وَيَنْبَغي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذليلِ قُوَّتِهِ ٱلغَضَبِيَّةِ انْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورِ مَوَاضِعِ ٱلفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَانَّ هٰذِهِ ٱلمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَساوَةَ ٱلقَلْبِ وَتُغلِظُهُ وَتُعدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ إِذٰاكَ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ فاذَا ارادَ تَذليلَها وتَسكينَها يَجِبُ انْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَساءِ وَٱلأَفاضِلِ ومَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغي لَهُ انْ يَتَجَنَّبَ ٱلمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَانَّهُ يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلغَضَبِيَّةَ اكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ ...

وَيَنْبَغي لِمَنْ ارادَ تَذليلَ قُوَّتَيْهِ ٱلغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا انْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يفعلُهُ ٱلفِكْرَ وَلَا يُقْدِمَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ انْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَانَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلفِكْرِ يُقَبِّحانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلغَضَبِ وَٱلِانْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعَ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ احْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ انْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلقُوَّةِ ٱلغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا امْكَنَهُ انْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَذَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْحَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ . أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا . وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلْإِرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا ايضًا مُجَالَسَةُ اهلِ ٱلعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِاخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً اَصْحَابُ عُلُومِ ٱلحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ امُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

اَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَانَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ اِذَا رَاضَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ. فَانَّهَا اِذَا ارْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ انِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْاِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يَسْتَكْرِهُهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ اَنَّ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِاعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ اِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَانَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ اكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْاِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ ايُّهُمَا اَجْدَى عَلَيْهِ وَانْفَعُ وَايُّهُمَا اَجْدَرُ عَاقِبَةً وَابْقَى عَلَى ٱلْاَيَّامِ. فَانَّهُ اِذَا صَدَقَ مَا تَاكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ اَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ اِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقْتِ اَسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ اَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا اِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِنْسِرَاعِ اِلَى ٱلْاِنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْجَلَتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ اَمْرَهُ فَرَاَى اَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيْرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا اِرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اَجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ اَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَاَمْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَاِنِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِاَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِاَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَاِذَا حَاسَبَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ اَنَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْاَخْلَاقِ اَكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَاَنَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَاَنَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ سِيَاسَةَ اَخْلَاقِهِ اَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريًا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العليا وأما إن قنع بالتوسط يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبدًا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فاذا أخذ الإنسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنًا والمحاسن خلقًا وطبعًا

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق... فنقول إن الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي اليه إنسان وإذا انتهى اليه افتراضًا كان أشبه منه بالناس. وذلك لأن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول إلا أنه ممكن وهو غاية ما ينتهي اليه الإنسان فإذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقه كان ممكنًا له أن ينتهي الى الغاية المقصودة المنتهي هو لها تلك التي تسمو نفسه اليها

أما تفصيل ذلك هو أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه متيقظًا

لِسائِرِ مَعايبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُتِنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاِجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرف

(راجع صفحة ٧٧ من عام الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : اَمعَاشِرَ ٱلكُتَّابِ اَحسِنُوا ٱلاَبتِدَاءَاتِ فَانَّهنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيَانِ . وَذٰلِكَ اَنْ يَجعَلَ ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِالقَائِهِ فَيَنظُرَ اِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيَجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ اَوِ ٱلدُّعَاءَ اَوِ ٱتَّضوِينَ مُشعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلاِبتِدَاءَاتُ بِٱلاِختِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلاِبتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱستِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ اَسمَاعَهُم شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُم بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ اَنْ يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ اَكثَرَ ٱلاِبتِدَاءَاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

الى الاستماع . وقد قيل : كل كلام لا يبتدأ فيه بالحمدلة فهو ابتر . وحقيقة هذا الباب ان يجعل مطلع الكلام من الخطب او الرسائل او الشعر دالًّا على المعنى المقصود من ذلك الكلام ان فتحًا ففتحًا وان كان هناء فهناء او كان عزاء فعزاء وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني . وفائدته ان يعرف من الكلام ما المراد به ويستفتح المتكلم ابواب الاسماع ويستحضر الاذهان للاستماع . وهذا الشعب عظيم النفع لمن حققه ولا يفتح بابه الا لمن طرقه وقد يسمى ايضًا هذا النوع براعة الاستهلال وسيأتي عنه الكلام في القسم الثاني من هذا المجموع عند الكلام عن الشعر

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

القضية قول يصح ان يقال لقائله انه صادق فيه او كاذب وهي مجموع المعلومات الاربعة وهي المحكوم عليه والمحكوم به والنسبة الحكمية والحكم وادراك هذه الاربعة تصديق . والقضية اما حملية واما شرطية . قالوا : ان كان المحكوم عليه والمحكوم به قضيتين عند التحليل اي عند حذف ما يدل على العلاقة بينهما من النسبة

ٱلْحِكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً. فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا: (زَيْدٌ نَائِمٌ). قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ. لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ ٱلْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَٱلثَّانِي مَحْمُولًا. وَقَوْلَنَا: (إِنْ كَانَتِ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً فَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ. لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَٱلْفَاءَ) ٱلْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ: (ٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ. وَٱلْقَضِيَّةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَاتِبٌ. وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ ٱلْمَوْضُوعِ. وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجَبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً. وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ عَلَى ٱلتَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ: لَوْ كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا. وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِٱمْتِنَاعِ ٱجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي ٱلصِّدْقِ وَهِيَ ٱلَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ. وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَٱلثَّانِي تَالِيًا. وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْبَسِيطَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِٱلضَّرُورَةِ.

وَامَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ : لَا شَيْءَ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ اِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ : كُلُّ اِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ اِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ . فَهِيَ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا . وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ اُصُولًا . وَمِنْ حَيْثُ اَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ اَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً . وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدِّمَةً وَقَضِيَّةً . وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَامَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا اِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا : ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَاِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا اَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ . وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ اِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِالرِّدْفِ ايضًا. وَمَوضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الحَدُّ الاَصْغَرُ وَالمَحكُومُ فِيهَا هُوَ الحَدُّ الاَكبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي القَضِيَّتَينِ الاُولَيَينِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَطَ. وَيَدعُونَ القَضِيَّةَ المُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الاَكبَرِ مُقَدَّمَةً كُبرَى وَالمُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الاَصغَرِ مُقَدَّمَةً صُغرَى. وَمَجمُوعُ المُقَدِّمَةِ الصُّغرَى بِالكُبرَى فِي القِيَاسِ يُعرَفُ بِالضَّربِ. وَنِسبَةُ الحَدِّ الاَوسَطِ اِلَى الاَصغَرِ وَالاَكبَرِ هُوَ الشَّكلُ. وَاشكَالُ القِيَاسِ ارْبَعَةٌ لِاَنَّ الاَوسَطَ اِنْ كَانَ مَحمُولًا فِي الصُّغرَى مَوضُوعًا فِي الكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الاَوَّلُ) كَقَولِكَ: كُلُّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرطُ اِنتَاجِ هٰذَا الشَّكلِ اِيجَابُ الصُّغرَى وَكُلِّيَّةُ الكُبرَى وَهُوَ يَختَصُّ بِاَنَّهُ يُنتِجُ المُوجَبَةَ الكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي الاَشكَالِ لَا يُنتِجُ المُوجَبَةَ الكُلِّيَّةَ بَلْ اِمَّا مُوجَبَةً جُزئِيَّةً اَو سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ الحَدُّ الاَوسَطُ مَحمُولًا فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الثَّانِي) كَقَولِكَ: كُلُّ اِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ الجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ الجَمَادِ بِاِنسَانٍ. وَكَقَولِ البَعضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيعُهُ لَيسَ بِمَجهُولِ الصِّفَةِ فَالنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيعُهُ. وَشَرطُ اِنتَاجِهِ اختِلَافُ مُقَدَّمَتَيهِ فِي الاِيجَابِ وَالسَّلبِ وَكُلِّيَّةُ كُبرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّهُ لَا يُنتِجُ اِلَّا سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ الاَوسَطُ مَوضُوعًا فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهُوَ (الشَّكلُ الثَّالِثُ) نَحوَ كُلُّ اِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ اِنسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعضُ الحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرطُ اِنتَاجِهِ اَنْ تَكُونَ صُغرَاهُ مُوجَبَةً

وَانْ تَكُونَ اِحْدَى مُقَدِّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِهِ انَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً . وَانْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلْاَوْسَطُ عَكْسَ ٱلْاَوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ : كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنْسَانٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلْقِيَاسُ يُقْسَمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَٱلْقِيَاسُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ اَنْ نُبَيِّنَ اَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ . وَٱلْغَيْرُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ ٱلْاَمْرِ اَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ . بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَٱفْتِرَاضُهُ . وَٱلْقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِٱلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اَقْتِرَانِيًا كَقَوْلِكَ : كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقْتِرَانِ ٱلْحُدُودِ فِيهِ . وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ اَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اَسْتِثْنَائِيًا كَقَوْلِكَ : اِنْ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسية والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِأَقسامِ ٱلقِيَاسِ مُلحَقَاتٌ اخرُ يُقسمُ إِلَيهَا. (اَوَّلُهَا) ٱلقِيَاسُ ٱلمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ يُنتِجُ مُقَدِّمَتَانِ مِنهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلمُقَدِّمَةِ ٱلأُخرَى نَتِيجَةً أُخرَى وَلَا تَزَالُ تَتَابَعُ بَعضُهَا مُقَدِّمَاتٍ لِبَعضٍ إِلَى اَنْ يَحصُلَ ٱلمَطلُوبُ. فَإِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَوصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصلِ تِلكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلمُقَدِّمَاتِ كَقَولِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ إِنسَانٌ وَكُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسمٌ. وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلكَ ٱلأَقيِسَةِ سُمِّيَ مَفصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطوِيَّهَا كَقَولِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ إِنسَانٌ. وَكُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ. وَكُلُّ نَامٍ جِسمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسمٌ. (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلخُلفِ. وَهُوَ قِيَاسٌ ٱستِثنَائِيٌّ يُقصَدُ فِيهِ إِثبَاتُ ٱلمَطلُوبِ بِإِبطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ. فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلمَطلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ. لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

اَلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خَلْفًا لِاَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ اَيْ مِنْ وَرَائِهِ . (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِاثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ اَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي اَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ اَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِاثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ اِمَّا حَيَوَانٌ اَوْ نَبَاتٌ اَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتَجُ اَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِاَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يُحَرِّكُ فَكَّهُ ٱلْاَسْفَلَ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ اِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِاَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ اَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقَسَّمُ اِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَاِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

اَمَّا اَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (اَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخِطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : الصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : الْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ . (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ : هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخِطَابِيِّ أَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْاِسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

ٱسْتِقْرَاءٌ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي ٱلقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ اَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلاِسْتِقْرَاءِ وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلاِسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ اسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ بِٱسْتِقْرَاءٍ. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلاِسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطْبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاءُ اِذَا تُؤُمِّلَ اَمْرُهُمْ ظَهَرَ اَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ اَعْنِي اِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَاِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا اَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلاِسْتِقْرَاءِ وَٱلقِيَاسِ. وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ اِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلقِيَاسِ اَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلقِيَاسِ وَاَنَّ ٱلاِسْتِقْرَاءَ وَٱلْمِثَالَ اِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلقِيَاسِ. فَاَمَّا مَا هُوَ ٱلقِيَاسُ وَمَا ٱلفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ اَيْضًا ٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلقِيَاسِ وَٱلاِسْتِقْرَاءِ. وَٱلاِسْتِقْرَاءُ وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ اَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ اَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ اَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَاِذَا كَانَ ٱلاَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هذين الجنسين من القول نوعًا خطبيًا ونوعًا جدليًا ونوعًا برهانيًا ونوعًا سوفسطائيًا . فانه كما يوجد الاستقراء والقياس في هذه الصنائع كذلك يوجد في الخطابة المثال والضمير وانما يختلف في هذه الصنائع بجهة الاستعمال التي في صناعة البرهان وصناعة الجدل . والقياس في الجدل اوثق من الاستقراء والمثال في الخطابة اقنع من الضمير لان الضمير يتطرق اليه العناد اكثر من تطرقه الى المثال وسبب هذا سنخبر به فيما بعد وكذلك كيف نستعمل هذه الاشياء . فاما الآن فينبغي ان نحدد هذين الطريقين من الاقناع التي الضمير والمثال فنقول :

ان القول المقنع اما ان يكون مقنعًا لواحد من الناس او لجماعة من الناس او لاكثر الناس . وايضًا منه ما يكون اقناعه في امر كلي ومنه ما يكون في امر جزئي . وكلا هذين منه ما يكون اقناعه بينًا بنفسه ومنه ما يكون اقناعه بغيره . والذي يكون اقناعه بغيره في الجزئيات ضربان (احدهما) ان يقول القائل : ان كذا انما هو كذا لموضع كذا . مثل قول القائل : ان شراب السكنجبين ينفع فلانًا لانه محموم . وهذا هو الذي يسمى الضمير . (والضرب الثاني) ان يقول : ان كذا انما كان كذا لانه مثل كذا . مثل ان يقول . ان فلانًا ينتفع بشراب لسكنجبين لان فلانًا انتفع به . وهذا هو الذي يسمى المثال . والمقنعات التي هي مقنعة عند واحد من الناس فليس تستعملها

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِانَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ
لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ
اَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ
ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ اِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ
ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْاَكْثَرِ اوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ
ٱلْجَدَلِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ
ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ
فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ انَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتِّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ
مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَامَّا ٱلضَّمِيرُ فَانَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي
هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ انْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ
ٱلصِّنَاعِيِّ فَانَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ
وَيَرَوْنَ انَّ ذٰلِكَ اِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْاَمْرِ فِي
نَفْسِهِ . وَايْضًا فَانَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي انْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ
ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ انْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ .
وَايْضًا فَانَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ
اَعْنِي انَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ
بَلْ اِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدَّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ انَّهُمْ
يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ
بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَايْضًا فَانَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُصْنَعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُمْكِنَةِ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاوَرِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعِ ٱلْوُجُودِ وَكَانَتِ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمَوَادِّ كَاذِبَةً بِٱلْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِئَلَّا يُفْطَنَ لِكَذِبِهَا . وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلصَّنْعَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِمَّا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ إِقْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ مُقَدِّمَاتٍ تَتَبَيَّنُ مُقَدِّمَاتُهَا بِمُقَدِّمَاتٍ أُخَرَ تَخْلِطُ بِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرُورَةً فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي أَنْ يَعْسُرَ تَأْلِيفُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ لِمَكَانِ كَثْرَةِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ وَطُولِ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي يُصَرَّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتُرَتَّبُ تَرْتِيبًا صِنَاعِيًّا وَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ ٱلْحُكَّامُ بَلْ يُحِبُّونَ ٱلْمُتَكَلِّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلَّفٍ فِيهِ صَنْعَةٌ عَلَى ٱلْجُمْهُورِ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ ٱلْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا ٱلْإِقْنَاعُ أَعْنِي فِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مَحْمُودٌ أَوْ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَكَذٰلِكَ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلتَّصْدِيقُ بِطَرِيقِ أَخْذِ ٱلْأَشْبَاهِ وَٱسْتُقْصِيَ وَجُعِلَ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ عَرَضَ ٱلْعُسْرُ ٱلَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلطُّولِ وَٱلْكَثْرَةِ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَإِذَنْ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخَطْبِيُّ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ وَٱلْمِثَالُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْقِيَاسُ وَٱلِٱسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

ٱلْأَشْيَاءُ مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاءِ . فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَإِذَا أُخِذَتْ بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا . وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ أَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلْإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ . وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّهَا كَأَنَّهَا اُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ . وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ . وَاَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَاَنْ يُسَاءَ اِلَى ٱلْمُسِيءِ . وَاَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ . وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ اَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا اِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْاَكْثَرِ اِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ اَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ اِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي اِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ اَعْنِي اَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى اَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا اَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْاَصْغَرِ وَاَخَصُّ مِنَ ٱلْاَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ اَخَصُّ مِنْهُمَا . اَمَّا ٱلَّذِي هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

الأصغر وأخص من الأكبر فإنه يأتلف ضرورة في الشكل الأول. وإذا كان في المادة الممكنة على الأكثر فهو الذي يعرفه القدماء بالأشبه. ومثاله في المادة الضرورية: هذه أنثى الحيوان لها لبن فهي قد ولدت. وفي الممكنة على الأكثر. فلان يعد السلاح ويجمع الرجال وليس قربه عدو فهو يريد أن يعصي الملك. ومثال الممكنة على التساوي: فلان قد تعب والمتعوب محموم فلان محموم. وهذا هو الذي يعرف بالمشبه. وأما ما هو أعم من الطرفين فإنه يأتلف في الشكل الثاني إلا أنه غير منتج إلا في بادي الرأي. مثال ذلك في المادة الممكنة على الأكثر قول القائل: سقراط يتنفس متواترا والمحموم يتنفس متواترا فسقراط محموم. فهاتان المقدمتان صادقتان والنتيجة قد تكون كاذبة إذ قد يمكن أن يكون تنفس سقراط متواترا لموضع احضاره. ولما كان ذلك خافيا على كثير من الناس إذا رأوا في أمثال هذه المقدمات الصادقة أنها تنتج كذبا ظنوا لذلك أنه قد انطوى فيها كذب فيرومون أن يعاندوا المقدمات فيعسر ذلك عليهم لمكان صدقها فيتحيرون لذلك. وأما التي هي أخص من الطرفين فتنتج في الشكل الثالث جزئيا لا كليا لكن تؤخذ نتيجته في هذه الصناعة كلية. مثال ذلك في المادة الضرورية قول القائل: الأشياء كلها في كرة العالم والأشياء كلها في الزمان فالزمان كرة العالم. وفي الممكنة قول القائل: الحكماء عدول لأن سقراط حكيم وعدل.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الاول يخص باسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخص باسم العلامة من الثالث كما انه ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يخص باسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضمير المشتبه . فقد تبين من هذا القول ما هي المحمودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكن الذي تبين من الاقاويل القياسية على الحقيقة انما هو في كتاب القياس فانه هنالك تبين ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بينا فيما تقدم انه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانه ليس يصار فيه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بينا بالكلي الذي اثبتناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في انه يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فانا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فان المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ . إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ . أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلأَعْرَفِ . وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلِاسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ : أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يَعُدُّهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ . فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ : إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ . إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ . إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا . (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَاهُنَا. وَسَبَبُ غُمُوضِهِ اَنَّ الضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ الْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ الْقِيَاسَاتُ الْجَدَلِيَّةُ لٰكِنْ مِنَ الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي الْمَوَادِّ الَّتِي فِي الصَّنَائِعِ. مِثْلَ الضَّمَائِرِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الْأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّنَائِعِ. وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ الصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اسْتِعْمَالِ الْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ الصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا الْخَطِيبُ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي تَخُصُّ الْخَطَابَةَ مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ. وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْأَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ اَتَمَّ فِعْلًا وَانْفَذَ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ. وَمِنَ الضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ الْأُمُورُ الْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ الْخُطَبَاءُ الْأَقَاوِيلَ الْخُطْبِيَّةَ. وَمِنْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي اَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي هِيَ فُصُولُ الضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ الْمَوَادِّ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةٌ



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اوْ نَفْيِ دليلهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ . وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِن حَيْثُ انَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ . وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ ايضًا فِي اصْطِلَاحِ اهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ . وَقِيلَ ايضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اي تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ احَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَانْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ إِظْهَارُ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ . وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلْأَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يُبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجِدَالِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُنَاظِرَيْنِ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ اعْتِرَاضِهِ اوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ ﻫ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ ﻫ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا اعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . إِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ﻫ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ إِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تُظْهِرَ ٱلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ إِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تُفَرِّقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ ٱلْبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَإِ وَٱسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ اِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْأَطِبَّاءُ . وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ : هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ . وَاَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فهوَ أنَّ يكونَ مُسترشِدًا عالِمًا عاقِلًا فهما لا يكونُ مغلوبَ الحَسَدِ والغضبِ ومُحِبَّ الجاهِ والمالِ والشهوةِ ويكونَ طالبَ الطريقِ المستقيمِ ولم يكن سؤالُهُ واعتراضُهُ عن حسدٍ وتعنُّتٍ وامتحانٍ وبحثٍ. وهذا يقبلُ العلاجَ فيجوزُ أنْ تشتغلَ بجوابِ سؤالِهِ بل يجبُ عليكَ إجابتُهُ . أمَّا الذي لا يقبلُ العلاجَ أحدُهُم من كانَ سؤالُهُ واعتراضُهُ عن حسدِهِ وبغضِهِ والحسدُ لا يقبلُ العلاجَ لأنَّهُ من العلَّةِ المُزمنةِ فكلَّما تجيبُهُ بأحسنِ الجوابِ وأفصحِهِ وأوضحِهِ لا يزيدُ لهُ ذلكَ إلَّا غيظًا وحسدًا فالطريقُ أنْ لا تشتغلَ بجوابِهِ :

كلُّ العداوةِ قد تُرجى إزالتُها   إلَّا عداوةَ من عاداكَ عن حسدِ

فينبغي لكَ أنْ تُعرِضَ عنهُ وتتركَهُ مع مرضِهِ قالَ : فأعرِضْ عن مَن تولَّى عن ذكرِنا ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ والدنيا واتَّبعَ هواهُ فتردَّى والحسودُ بكلِّ ما يقولُ ويفعلُ يوقدُ النارَ في زرعِ عملِهِ كما جاءَ في الحديثِ : الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ. والثاني أنْ يكونَ علَّةٌ من الحماقةِ وهو أيضًا كالحسودِ لا يقبلُ العلاجَ كما قالَ عيسى عليهِ السلامُ : (١) إنِّي ما عجزتُ عن إحياءِ الموتى وقد عجزتُ عن معالجةِ الأحمقِ وذاكَ رجلٌ يشتغلُ لطلبِ العلمِ زمانًا قليلًا ويتعلَّمُ شيئًا من العلمِ العقليِّ والشرعيِّ فيسألُ ويعترضُ من حماقتِهِ لا يعلمُ ولا يفهمُ على العالِمِ الكبيرِ

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقاليد . ولا نعلم عمّن رواهُ الغزّالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِاسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِاشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضَيِّعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضَيِّعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعَجِّلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ • وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْنَائِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ إِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ : مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشَبِّهَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ : إِنَّ أَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

امرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييز بين الشيء واشباهه ثم انها تنقسم الى ما يتعلق بالالفاظ والى ما يتعلق بالمعاني. (والاول) ينقسم الى ما يتعلق بالالفاظ لا من حيث تركيبها والى ما يتعلق بها من حيث تركيبها. (والاول) لا يخلو اما ان يتعلق بالالفاظ انفسها وهو ان تكون مختلفة الدلالة فيقع الاشتباه بين ما هو المراد وبين غيره. ويدخل فيه الاشتراك والتشابه والمجاز والاستعارة وما يجري مجراها ويسمى جميعًا بالاشتراك اللفظي. واما ان يتعلق باحوال الالفاظ وهي اما احوال ذاتية داخلة في صيغ الالفاظ قبل تحصلها كالاشتباه في اللفظ المختار بسبب التصريف اذا كان بمعنى الفاعل او المفعول. واما احوال عارضة لها بعد تحصلها كالاشتباه بسبب الاعجام والاعراب. (والمتعلقة بالتركيب) تنقسم الى ما يتعلق الاشتباه فيه بنفس التركيب كما يقال: كل ما يتصوره العاقل فهو كما يتصوره. فان لفظ (هو) يعود تارة الى المعقول وتارة اخرى الى العاقل والى ما يتعلق بوجوده وعدمه اي بوجود التركيب وعدمه. وهذا الآخر ينقسم الى ما لا يكون التركيب فيه موجودًا فيظن معدوما ويسمى تفصيل المركب. والى عكسه ويسمى تركيب المفصل واما (المتعلقة بالمعاني) فلا بد ان تتعلق بالتأليف بين المعاني اذ الافراد لا يتصور فيها غلط لو لم يقع في تأليفها بنحو ما ولا يخلو من ان تتعلق بتأليف يقع بين القضايا او بتأليف يقع في قضية واحدة. والواقعة بين القضايا اما قياسي

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ. وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ. اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا: كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تُكْذِبُ ٱلْكُبْرَى. وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ. وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ. وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِٱعْتِبَارِ غَيْرِهِ. وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ. وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا: ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ. وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ: زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ. فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا. وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بالقضيةِ الواحدةِ) فاما ان تقعَ فيما يتعلقُ بجزئي القضيةِ جميعًا وذلك يكونُ بوقوعِ احدِهما مكانَ الآخرِ ويسمّى ايهامَ العكسِ. ومنهُ الحكمُ على الجنسِ بحكمِ نوعٍ منهُ مندرجٍ تحتهُ نحو: هذا لونٌ واللونُ سوادٌ فهذا سوادٌ . ومنهُ الحكمُ على المطلقِ بحكمِ المقيدِ بحالٍ او وقتٍ نحو: هذهِ رقبةٌ والرقبةُ مؤمنةٌ . واما ان تقعَ فيما يتعلقُ بجزءٍ واحدٍ منها. وتنقسمُ الى ما يوردُ فيهِ بدلَ الجزءِ غيرُهُ مما يشبهُهُ كعوارضِهِ او معروضاتِهِ منهُ ويسمّى اخذَ ما بالعرضِ مكانَ ما بالذاتِ كمن راى الانسانَ انهُ يلزمُ لهُ التوهمُ والتكليفُ فظنَّ انَّ كلَّ متوهمٍ مكلفٌ . والى ما يوردُ فيهِ الجزءُ نفسهُ ولكن لا على الوجهِ الذي ينبغي كما يؤخذُ معهُ ما ليس فيهِ نحو: زيدٌ الكاتبُ انسانٌ . او لا يؤخذُ معهُ ما هو من الشروطِ او القيودِ كمن يأخذُ غيرَ الموجودِ كاتبًا غيرَ موجودٍ مطلقًا ويسمّى سوءَ اعتبارِ الحملِ . فقد حصلَ من الجميعِ ثلاثةَ عشرَ نوعًا ستةٌ منها لفظيةٌ يتعلقُ ثلاثةٌ منها بالبسائطِ هي الاشتراكُ في جوهرِ اللفظِ وفي احوالهِ الذاتيةِ وفي احوالهِ العرضيةِ وثلاثةٌ منها بالتركيبِ وهي التي في نفسِ التركيبِ وتفصيلِ المركبِ وتركيبِ المفصلِ. وسبعةٌ معنويةٌ . اربعةٌ منها باعتبارِ القضايا المركبةِ وهي سوءُ التأليفِ والمصادرةُ على المطلوبِ ووضعُ ما ليس بعلةٍ علةً وجمعُ المسائلِ في مسئلةٍ واحدةٍ. وثلاثةٌ باعتبارِ القضيةِ الواحدةِ وهي ايهامُ العكسِ واخذُ ما بالعرضِ مكانَ ما بالذاتِ وسوءُ اعتبارِ الحملِ . فهذهِ هي الاجزاءُ

اَلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ . وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَالتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجَبِّنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ : مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ . قَالَ : مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَاللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ . وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ : قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ . وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَرَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ . وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا   أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِيلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَضْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شَبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللّٰهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ . فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا . قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللّٰهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ . فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ . (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ : صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا . فَحَمِدَ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ : رَفَعَهَا ٱللّٰهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ . فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفُّ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعَمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا
هٰذِهِ ٱلْعَصَا. (ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ): فَكَانَ هٰذَا اَوْجَدَهُ ٱللّٰهُ بَعْدَ
عَدَمٍ وَاَنْشَاهُ اَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ اِلَى
هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا
فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا
عَلَى بَدِيهِ اَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ
شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ:
يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا
اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقًا وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا اِلَّا
اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرِضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ
وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللّٰهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ
مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ:
مَا اُعْجِبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسِمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ
عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ
وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ
ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا
ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ
ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ
اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكُتَّابِهِ: اَفْصِلُوا بَيْنَ
مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

ٱلحارثُ بنُ أبي شَمِرَ ٱلغَسَّانِيُّ يقولُ لِكاتبِهِ ٱلمُرَقِّشِ: إِذَا نَزَعَ بِكَ ٱلكَلامُ إِلى ٱبتداءِ معنًى غيرِ مَا أنتَ فيهِ فَصِلْ بينَهُ وبينَ مَا تَبْتَغيهِ مِنَ ٱلأَلفاظِ فإنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ ٱلفاظَكَ بغيرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ تُمْذَقَ بِهِ نَفَرَتِ ٱلقلوبُ عَنْ وَعْيِهَا ومَلَّتْهُ ٱلأَسماعُ وَٱستثقلَتْهُ ٱلرُّواةُ. وَكانَ بُزُرْجُمْهر يقولُ: إِذَا مدحْتَ رَجُلًا وهجوتَ آخرَ فَٱجعلْ بينَ ٱلقولَيْنِ فصلًا حتَّى تعرِفَ ٱلمدحَ مِنَ ٱلهِجاءِ كما تفعلُ في كُتُبِكَ إِذَا ٱستأنفتَ ٱلقولَ وأكملتَ ما سَلَفَ مِنَ ٱللفظِ. وقالَ ٱلحسنُ بنُ سَهْلٍ لِكاتبِهِ ٱلحَرَّانِيِّ: مَا مَنْزِلَةُ ٱلكاتبِ في قولِهِ وفعلِهِ. قالَ: أَنْ يكونَ مطبوعًا مُحْتَنِكًا بِٱلتَّجْرِبَةِ سالِمًا بِحَلالِ ٱلكتابِ وَٱلسُّنَّةِ وحرامِهَا بِٱلدُّهورِ في تداوُلِها وتصرُّفِها وبِٱلمُلوكِ في سِيَرِها وأيَّامِها مَعَ بَراعَةِ ٱللفظِ وحُسْنِ ٱلنَّسَقِ وتأليفِ ٱلأَوصالِ بِمُشاكَلَةِ ٱلاستعارةِ ويشرحُ ٱلمعنى حتَّى يَنْصِبَ صُوَرَها. وبِمَقاطِعِ ٱلكلامِ ومعرفةِ ٱلفصلِ مِنَ ٱلوصلِ وإِذَا كانَ ذلكَ كذلكَ فهوَ كاتبٌ مُجيدٌ. وقالَ ٱلمأمونُ: مَا أَتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شيئًا كتحفُّظي عَنِ ٱلفصلِ وَٱلوصلِ في كتابِهِ وَٱلتخلُّصِ مِنَ ٱلمَحْلُولِ إِلى ٱلمعقودِ وإِنَّ لِكُلِّ شيءٍ جَمالًا وحِلْيَةَ ٱلكتابِ وجَمالُهُ إِيقاعُ ٱلفصلِ وَقْعَهُ وشَحْذُ ٱلفكرِ وإِجالَتُها في لُطْفِ ٱلتخلُّصِ مِنَ ٱلمعقودِ إِلى ٱلمَحْلُولِ. (قلنا): ومعنَى ٱلمعقودِ وَٱلمحلولِ هَا هُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ٱبتدأتَ مُخاطبةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلى موضعِ ٱلتخلُّصِ فَمَا عَقَدْتَ عليهِ كلامَكَ سُمِّيَ ٱلكلامُ معقودًا. وإِذَا شرحتَ ٱلسُّتورَ وأبنتَ عَنِ ٱلغرضِ ٱلمَنْزُوعِ إِليهِ

سُمِّيَ الكلامُ مُحاوِلاً. مِثالُ ذلكَ ما كتبَ بعضُهم: انظرْ سدَّدَ اللهُ رأيكَ أنْ لا تدعُوكَ مَقدرَتُكَ على الكلامِ إلى إطالةِ المعقودِ فإنَّ ذلكَ مِنسَاءٌ ما أكننْتَهُ في صدرِكَ وأوردتَ تضمِينَهُ في كتابِكَ. وأعلمْ أنَّ إطالةَ المعقودِ تُورثُ نسيانَ ما عقدتَ عليهِ كلامَكَ وأرتَهنتَ بهِ فِكرَتَكَ. وكانَ شبيبُ بنُ شَبَّةَ يقولُ لم أرَ مُتكلِّماً قطُّ أذكَرَ لِما عقدَ عليهِ كلامَهُ ولا أحفظَ لِما سلفَ مِنْ نُطقِهِ مِن خالدِ بنِ صفوانَ يُشيّعُ المعقودَ بالمعاني يصعُبُ الخروجُ منها إلى غيرِها ثمَّ يأتي بالمُحاوِلِ واضحاً بيّناً ومشروحاً منوَّراً وكانَ السامعُ لا يعرفُ مَغزاهُ ومقصدَهُ في أوّلِ كلامِهِ حتّى يصيرَ إلى آخرِهِ. وقالَ بعضُهم: لبئسَ عملٌ مِنَ القائلِ أنْ يكتُمَ مغزاهُ عنِ السامعِ لكلامِهِ في أوّلِ ابتدائِهِ حتّى ينتهيَ إلى آخرِهِ بلِ الأحسنُ أنْ يكونَ في صدرِ كلامِهِ دليلٌ على حاجتِهِ ومُبيِّنٌ لِمغزاهُ ومقصدِهِ كما أنَّ أخيرَ أبياتِ الشعرِ ما إذا سمعتَ صدرَهُ عرفتَ قافيتَهُ. وكانَ شبيبُ بنُ شَبَّةَ يقولُ: الناسُ مُوكَلونَ بتعظيمِ جودةِ الابتداءِ وبمدحِ صاحبِهِ وأنا مُوكَلٌ بتعظيمِ جودةِ المقطعِ وبمدحِ صاحبِهِ وخيرُ الكلامِ ما وُقِفَ عندَ مقاطعِهِ وبُيِّنَ موقعُ فصولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاوّل

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بشرُ بنُ ٱلْمُعتمِرِ بإبراهيمَ بن جبلةَ بن مخرمةَ ٱلسَّكونيّ ٱلخطيبِ وهُوَ يُعلِّمُ فتيانَهم ٱلخطابةَ فوقفَ بشرٌ يستمعُ فظنَّ إبراهيمُ أنَّهُ إنَّما وقفَ ليستفيدَ أو يكونَ رجلاً من ٱلنَّظَّارةِ فقال بشرٌ: اِضربوا عمَّا قالَ صفحًا وٱطوُوا عنهُ كشحًا. ثمّ دفعَ إليهم صحيفةً من تنميقِهِ وتحبيرِهِ فيها: خُذْ من نفسِكَ ساعةَ نشاطِكَ وفراغِ بالِكَ وإجابتِها إيّاكَ فإنَّ نفسكَ تلكَ ٱلسَّاعةَ أكرمُ جوهرًا وأشرفُ حسبًا وأحسنُ في ٱلاستماعِ وأحلى في ٱلصُّدورِ وأسلمُ من فاحشِ ٱلخطإِ وأجلبُ لكلِّ عينٍ من لفظٍ شريفٍ ومعنًى بديعٍ. وٱعلمْ أنَّ ذلكَ أجدى عليكَ ممَّا يُعطيكَ يومُكَ ٱلأطولُ بٱلكدِّ وٱلمطاولةِ وٱلمجاهدةِ بٱلتَّكليفِ وٱلمعاودةِ. ومهما أخطأكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدِنِهِ . وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ وَمَنْ اَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ تَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اِلَى اَنْ تَكُونَ اَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ تَلْتَمِسَ اِظْهَارَهُمَا وَتُرْهِنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا . فَكُنْ فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَاَوَّلُ ذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا اِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ وَاِمَّا عِنْدَ ٱلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ اَرَدْتَ . وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّضِعُ اَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ . وَاِنَّمَا مَدَارُ ٱلْاَمْرِ عَلَى ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقُدْرَتِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوَهَا ٱلْاَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَجْفُو عَنِ ٱلْاَكْفَاءِ فَاَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ . فَقَالَ لَهُ اِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ جُعِلْتُ فِدَاكَ اَنَا اَحْوَجُ اِلَى تَعَلُّمِي هٰذَا ٱلْكَلَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسعدكَ ٱللهُ إِكثارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِم ٱلقَوْلَ فِي اقسامِهَا وَأَنوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلأَلفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلأَوَابِدِ).
وَقَوْلِ ٱلأَعْشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلحُجَّةِ وَٱلأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلعِبَارَةِ بِأَعْذَبِ ٱلأَلفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى ٱلأَسْمَاعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى ٱلقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ ٱلبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ اَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ اَيضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأُمَّةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْاَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ اَبُو اَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ اَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ اُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقَاقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَاَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَاَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَاَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا اَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي اَنْ يُحَاضِرَ اَهْلَ ٱلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا اَوْ شَاكِرًا اَوْ عَاتِبًا اَوْ مُهَنِّئًا اَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ اِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا　　لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَاِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللّٰهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ اَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَاكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ انَّهَا ٱلِٱخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَن ذٰلِكَ فَقَالَ : لَمْحَةٌ دَالَّةٌ . وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ اكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَانَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (اِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ) . فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى : فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا اوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِٱخْتِصَارِ . وَمِنْ هٰذَا انَّ ٱلْمَأْمُونَ امَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ انْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَانْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا امْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كَتَبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ : امَّا بَعْدُ فَاِنِّي ارَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ اخْرَى فَاِذَا اتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى ايِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ . وَسَاذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ . فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللّٰهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ : إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللّٰهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللّٰهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرَ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الانسَانَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ ٱلْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ ٱلصَّوَابَ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى ٱلْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ ٱلْعِرَاقِيُّ لِلإِسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ ٱلْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ ٱلصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) فَٱنْظُرِ ٱلْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلْقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ إِلَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي ٱلدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ ٱلْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ اَفْصَحَ وَاحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ ٱلْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاَعْمِلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلسِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ اَرِسْطَاطَالِيسُ: اَلْحَاجَةُ إِلَى ٱلْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ ٱلشَّرَفِ هُوَ ٱلَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ إِلَى ٱلْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: اَلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّمَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمُ ٱلَّذِينَ اَخرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَفَاخَرَهُ: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ يَبْغَضُ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اَوْصَلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ قَحِطُوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الَى صَاحِبِ بَيْتِ ٱلْمَالِ : إِذَا قَحِطَ ٱلْمَطَرُ جَادَتْ سَحَائِبُ ٱلْمَلِكِ • فَفَرِّقْ فِيهِمْ مَا قَاتَهُمْ وَمَانَهُمْ . وَشُكِيَ مِثْلُ ذٰلِكَ إِلَى قُبَاذَ بْنِ كِسْرَى فَوَقَّعَ لِيَكُنْ بِنَا ٱلْبِرُّ لِلرَّعِيَّةِ وَٱلْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ فَإِنِّي وَإِيَّاهُمْ فِي نَفْعِ ذٰلِكَ مُسْتَوُونَ . وَمَدَحَ رَجُلٌ مِنَ ٱلْخَاصَّةِ كِسْرَى بْنَ قُبَاذَ بِمَدْحٍ أَطْنَبَ فِيهِ وَأَسْهَبَ وَذَهَبَ كُلَّ مَذْهَبٍ وَكَانَ ٱلْمَدْحُ فِي رُقْعَةٍ . فَوَقَّعَ فِيهَا كِسْرَى إِنِّي لِلْمَدْحِ مُسْتَصْغِرٌ لِعِلْمِي بِأَشْيَاءَ قَدْ مُدِحَتْ وَكَانَتْ بِأَنْ تُذَمَّ مَحْقُوقَةً . وَوَقَّعَ أَنُوشِرْوَانُ فِي رُقْعَةِ مُتَنَصِّحٍ : ثَمَرَاتُ ٱلنَّصَائِحِ شُكْرُ ٱلْجَوَارِحِ وَخَرَجَ ٱلتَّوْقِيعُ إِلَى وَزِيرٍ لَهُ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : قَدْ جَمَعْنَا إِلَى شُكْرِ ٱللِّسَانِ شُكْرَ ٱلْيَدِ وَهُوَ ٱلْبَذْلُ . وَوَقَّعَ كِسْرَى فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ سَأَلَهُ فِيهَا ٱلنُّقْلَةَ عَنْ صِنَاعَتِهِ إِلَى صِنَاعَةٍ غَيْرِهَا وَكَانَتْ صِنَاعَتُهُ خَسِيسَةً فَٱخْتَارَ صِنَاعَةً رَفِيعَةً فَوَقَّعَ فِي رُقْعَتِهِ . أَنَا حَامِلٌ لِلرَّعِيَّةِ عَلَى لُزُومِ مَنَازِلِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلِنَفْسِي عَلَى مَا يُحْمَلُ عَلَى ٱللُّزُومِ لَهَا

وَمِنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ جَمْعُ ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ فَقَدْ سُئِلَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَنَا نَرَى فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْقَلِيلِ عِدَّةَ مَعَانٍ • فَقَالَ : إِنَّ كَلَامَ ٱلْعَرَبِ أَوْعِيَةٌ وَٱلْمَعَانِي أَمْتِعَةٌ فَرُبَّمَا جُعِلَتْ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلْأَمْتِعَةِ فِي وِعَاءٍ وَاحِدٍ ... وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرِ ٱبْنِ يَحْيَى وَكَانَ قَرِيعَ دَهْرِهِ بَلَاغَةً فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَجُودَةَ لِسَانٍ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ أَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ ٱلْإِيجَازُ كَافِيًا كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ عِيًّا وَإِنْ كَانَ ٱلتَّطْوِيلُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا . وَحَكَى ٱلْمُفَضَّلُ قَالَ : قُلْتُ

لِأَعرَابِيٍ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ . وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ : كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ . قَالُوا : وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً . وَقَالُوا : وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ : حَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا . وَحَالًا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ . وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا . وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا . أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالِبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ . وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ . وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ . وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ : قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ . ٱلثَّانِيَةُ : ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا . ٱلثَّالِثَةُ : لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ .

اَلرَّابِعَةُ : رَحِمَ ٱللّٰهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . اَلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . اَلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجُرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . اَلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ . اَلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ . عُوجُ ٱللَّبَانِ طَوْعُ ٱلْعَنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : اَلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللّٰهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ . دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . اَلْبَادِئُ أَظْلَمُ . حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . اَلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ . اَلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ . ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ . ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ . مَنْ لَكَ بِاَخِيكَ كُلِّهِ . صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ اَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ آفَلَاطُونَ : إِنْ كَانَ اَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ اَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ : قَلْبِي يُحِيُّ ذِكْرَكَ . وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ : فُلَانٌ اَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ . وَقَالَ آخَرُ : ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ . وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ : اَعْلَمْ اَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا اَخْلَفَ لَكَ اَخْلَفَ بِنَا . وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَاَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ : إِنِّي لَاَكْرَهُ اَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ . وَقَالَ آخَرُ : فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ . وَقَالَ آخَرُ : ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ . ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ . ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ . وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ . فَقَالَ : رَائِدُ ذَاكَ مَعِي . قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ : نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ . اَرْجُو اَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا اَحْسَنْتَ ٱلِٱنْتِظَارَ . وَقَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : لِسَانُ ٱلْحَالِ اَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى . وَكَتَبَ آخَرُ : اَشْكُرْ لِمَنْ اَنْعَمَ عَلَيْكَ وَاَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ . وَكَتَبَ آخَرُ : إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ اَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ إِمَّا مُنَاظِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا ٱلْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ إِمَّا انْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطَبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطَبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلفُصُولُ ٱلْمُعطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلغَايَاتِ .
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذِهِ ٱلأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ ٱلجِنْسِ ٱلآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذٰلِكَ ٱلقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا
أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلخَصْمُ
أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
ٱلجَوْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ
كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا
عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلفِرَارِ جَوْرًا فِي
ٱلشَّرِيعَةِ . وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ
ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمِ أَلَّا يَتَمَعَّضُوا لِذٰلِكَ ٱلقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ
فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ
يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلإِنْسَانَ . فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبِلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ تُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاِخْتِيَارِ وَٱلْاِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَاَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَاَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلْاِتِّفَاقِ وَاَقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْاِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنْظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نُرَوِّي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْاِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ هٰهُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلَ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ أَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا أَعْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيّ مِنهَا. وَٱلأُمُورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى اَهلِ مَدِينَةٍ بِاَسْرِهِمْ وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ اَهلِ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) : فَاَمَّا ٱلاَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلعِظَامِ مِنْ أُمُورِ ٱلْمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ اَنْ تَكُونَ خَمْسَةً . اَحَدُهَا ٱلاِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلْمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلاَموَالِ لِلمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلاِشَارَةُ بِٱلحَربِ اَوِ ٱلسِّلمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلاِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلاِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ . وَٱلخَامِسُ ٱلاِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ . فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ اَنْ يَعرِفَ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ اَحَدُهَا اَنْ يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلْمَدِينَةِ مَا هِيَ اَعنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ اَوْ حَيَوَانٌ اَوْ مَعدِنٌ اَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ اَوِ ٱثْنَانِ مِنهَا كَيمَا اِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ اَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا . وَٱلثَّانِي اَنْ يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ اَهلِ ٱلْمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَعرِفَ اَصْنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْمَدِينَةِ فَاِنْ كَانَ فِيهَا اِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حالَ اهلِ مدينتِهِ فقط بل وحالَ مَنْ في تُخُومِهِ وثغرِهِ اعني كيف حالهُمْ في هذهِ الاشياءِ وحالهُمْ مع عدوّهم في الظَّفرِ بِهِ او العجزِ عنهُ فانَّهُ يأخذُ من ها هُنا مقدَّماتٍ نافعةً في الاشارةِ عليهم بالحربِ او السلمِ. ويحتاجُ مع هذا ان يعلمَ الحروبَ الجميلةَ من الحروبِ الجائرةِ وان يعلمَ حالَ الاجنادِ هل هُم متشابهونَ في القوَّةِ والشجاعةِ والرأيِ واجادةِ ما فوّضَ الى صنفٍ صنفٍ منهم من القيامِ بجزءٍ جزءٍ من اجزاءِ الحربِ. اعني ان يكونوا في ذلكَ متشابهينَ فانَّهُ ربَّما كثُروا وتساوَوا حتَّى يكونَ فيهم مَنْ لا يصلحُ للحربِ او للجزءِ من الحربِ الذي فُوِّضَ اليهِ القيامُ بهِ. وقد ينبغي مع هذا ان يكونَ ناظرًا ليس فيما افضتْ اليهِ محاربتُهم بل وفيما افضتْ اليهِ حروبُ سائرِ الناسِ من المتقدِّمينَ المشابهينَ لهم فانَّ الشبيهَ يُحكَمُ منهُ على الشبيهِ. اعني انَّهُ ان كانَ افضتِ الحروبُ الشبيهةُ بحربِهم الى مكروهٍ ان يشيرَ بالسلمِ وان كانتْ افضتْ الى الظفرِ ان يشيرَ بالحربِ. واما حفظُ البلادِ فانَّهُ يحتاجُ المشيرُ بالحفظِ ان يعرفَ كيفَ تُحفَظُ البلادُ وما مقدارُ الحفظِ المحتاجِ اليهِ في طارئٍ طارئٍ وكم انواعُ الحفظِ. ويعرفَ مع هذا المواضعَ التي يكونُ حفظُها بالرجالِ وهي التي تُسمَّى المسالحَ. فانْ كانَ الحفظُ لتلكَ المواضعِ قليلًا زادَ فيهم وان كانَ فيهم من لا يصلحُ للحفظِ نحَّاهُ ممَّن ليسَ يقصدُ قصدَ المحاماةِ عن المدينةِ بل يقصدُ قصدَ نفسِهِ. وينبغي لهُ ان يحفظَ اكثرَ من ذلكَ المواضعَ الخفيَّةَ

اعني ٱلَّتِي ٱلْمنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرًا بالبلاد ٱلَّتِي يشير بحفظها . واما الاشارة بالقوت وسائر الاشياء الضرورية ٱلَّتِي تحتاجها المدينة فانه يحتاج المشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل ادخل الكافي من ذلك في المدينة واحرز ام لم يدخل . وما الاشياء ٱلَّتِي ينبغي ان تخرج من المدينة وهو الفاضل عن اهل المدينة . وما الاشياء ٱلَّتِي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانه قد يحتاج المرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين : احدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من اجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفًا بجميع هذه الانواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) واما النظر في وضع السنن والاشارة بها فليس بيسير في امر المدن فان المدن انما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن ان يعرف كم اصناف السياسات واي سنة تنفع في سياسة سياسة واي سنة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف الاشياء ٱلَّتِي يخاف ان يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك اما من الاضداد من خارج واما من اهل المدينة فان سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلْقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاِعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ اِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ. وَاِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اَسْمُهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ ٱلْجَوَابِ ٱلَّذِي يُجِيبُ فِيهِ ٱلْآخَرُ. وَاِنَّمَا يُؤْثِرُهُ ٱلْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا ٱلِانْفِعَالِ ٱلْمَوْجُودِ لَهُ بِٱلطَّبْعِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ وَهٰذَا ٱلْخَيْرُ فِي ٱلْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ وَاَجْزَاءُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُفَصِّلَ اَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ اَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ اَضْدَادِهَا وَعَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوِ ٱلْاَنْفَعُ فِيهِ اَوِ ٱلضَّارَّةُ فِيهِ اَوِ ٱلْاَضَرُّ فِيهِ فَاِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمَشُورِيَّةُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(قَالَ) وَٱلَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلْاُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ مِثْلَ اَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّيْءَ ٱلصَّغِيرَ اِذَا اَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ ٱلشَّيْءَ ٱلْكَبِيرَ اِذَا اَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ لَا يَأْذَنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ وَفِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ اِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ ٱلشَّيْءُ اَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱخْتِلَالَ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَعُوقُهُ اَوْ تَتَجَاوَزُهُ اِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) فَاَمَّا صَلَاحُ ٱلْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ ٱلْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ ٱلسَّلَامَةِ وَٱلسَّعَةِ فِي ٱلْمَالِ وَحُسْنِ ٱلْحَالِ

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ
وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِاتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَامَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ اَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ اَنَّهُ يَكُونُ اَتَمَّ اِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي اَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي اُمَّةٍ اُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ اَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْاَحْرَارُ مِنْ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ اِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ اَبَدًا اَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ . فَاِنَّهُ اِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَاِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَاِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وَلَدَ مِنْهُمْ . وَامَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ . امَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِاَرْبَعٍ اِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ اَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ . وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ . وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْاَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ اَجْسَامِهِمْ . وَامَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ . وَامَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْاَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْاِنَاثِ . وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْاِنَاثِ اَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ . امَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْاَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ. وَامَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَانَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا انْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي اوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً اذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ ٱلصَّقَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ انْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ اعْنِي فِي اوْلَادِهِمْ امْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَانَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ اوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْاِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ ارِسْطُو انَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ. فَامَّا اجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْاَثَاثِ وَٱلْاَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ اذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَانْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا اي مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ اوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْاِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ انْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَانْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ انْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ انْ اذَا كَانَتْ ارْضًا الَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَانْ كَانَ فَرَسًا الَّا يَكُونَ جَمُوحًا. وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ انْ يَكُونَ الَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْاِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَامَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهوَ ٱستِعمَالُهُ عَلى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَانَّمَا ٱشتَرَطَ فِي ٱلغِنَى هٰذَا ٱلشَّرطَ لِأَنَّهُ ان يَكُونَ ٱلغِنَى فِي ٱستِعمَالِ ٱلمَالِ احرَى مِنهُ ان يَكُونَ فِي ٱقتِنَائِهِ لِانَّ ٱلاقتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلغِنَى وَامَّا ٱلاستِعمَالُ فَهُوَ ٱلغِنَى بِعَينِهِ وَامَّا حُسنُ ٱلفِعلِ عَلى ٱلرَّأيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلكُلُّ فَاعِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلاكثَرُ لَا مَحَالَةَ اوِ ٱلاخيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلكَيسِ وَٱلفِطنَةِ

(قَالَ) وَامَّا ٱلكَرَامَةُ فَانَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلمُعتَنِي بِحُسنِ ٱلفِعلِ وَاكرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِهِم هِيَ مُكَافَاةٌ عَلى طَرِيقِ ٱلعَدلِ وَٱلحَقِّ اِذ كَانَت هٰذِهِ ٱلافعَالُ لَيسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيسَ يُكرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَط بَل وَٱلَّذِينَ يَستَطِيعُونَ ان تَكُونَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ اعنِي ٱلَّذِينَ لَهُم قُوَّةٌ عَلى ذٰلِكَ وَان لَم يَفعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلاكرَامِ وَٱلعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَستَوجِبُ ٱلكَرَامَةَ هِيَ ٱلعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُم مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيسَ ٱلتَّخلِيصُ مِنهَا بِهَيِّنٍ او اِفَادَتُهُمُ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي لَيسَ اِفَادَتُهَا بِٱلسَّهلِ . وَهٰذِهِ ٱلافعَالُ ٱلجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلغِنَى او ٱلسُّلطَانِ او مَا اشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلانسَانِ بِهِ ٱلقُدرَةُ عَلى امثَالِ هٰذِهِ ٱلافعَالِ وَقَد يُكرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلى خَيرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلاضَافَةِ اِلى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَاِلى تِلكَ ٱلحَالِ . فَكَانَ ٱلكَرَامَةُ عَلى ٱلاشيَاءِ ٱليَسِيرَةِ هِيَ بِٱلعَرَضِ اي مِن جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلكَ ٱلاشيَاءِ ان تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلاضَافَةِ

اِلَى ذَٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ اِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ . فَاِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذَٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ اِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذَٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَاِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَاَمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ . وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذَٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَزِيزِينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَاِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمْ ٱلْآلَامَ وَٱلْاِنْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ اِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذَٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذَلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذْقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا ٱلْخَمْسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمْرِ مَعَ ٱلْأَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعمارُهمْ مَعَ اَنَّهم مِسقَامونَ . وتَصحيحُ هٰذا هوَ للعِلمِ الطَّبيعيِّ وَليسَ فِي تَصحيحِهِ فِي هٰذا العِلمِ منفعةٌ وَالخطيبُ اِنَّما يكتفِي مِنْ ذٰلكَ بِالشَّيءِ الظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمّا كثرةُ الخلّةِ وَصلاحُ حالِ الانسانِ بِالاخوانِ وَذٰلكَ اَيضاً غيرُ خفيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هوَ الخليلُ وَالصَّاحِبُ . وهُوَ اَنْ يكونَ كُلُّ وَاحِدٍ منهما يفعلُ الخيرَ الّذي يَظُنُّ اَنّهُ يَنفعُ بِهِ الآخرَ لا الخيرَ الّذي يَنتفعُ بِهِ فِي نفسهِ فقطْ . وَاِذَا كانتِ الخلّةُ وَالصُّحبةُ هِيَ هٰذهِ فبيّنٌ اَنَّ المرءَ يكونُ صالحَ الحالِ بِالاخوانِ الكثيرةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صلاحُ الجدِّ فهوَ اَنْ يكونَ الاتّفاقُ لِلانسانِ مَا عِلّةً لوُجودِ الخيرِ لهُ . وَذٰلكَ اِمّا مِنَ الخيراتِ الموجودةِ فِي ذاتِهِ وَاِمّا مِنَ الخيراتِ الموجودةِ لهُ مِنْ خارجٍ . وَعِلّةُ الاتّفاقِ قدْ تكونُ الصناعةَ وقدْ تكونُ الطَّبيعةَ وهوَ الاكثرُ . فمثالُ مَا يكونُ عنِ الاتّفاقِ الطَّبيعيِّ اَنْ يُولدَ الانسانُ ذَا قُوّةٍ وهيئةٍ يعسرُ بِها قَبولُهُ الأُمورَ الوارِدةَ عليهِ مِنْ خارجٍ . فَاَمَّا اَنْ يكونَ الانسانُ صحيحاً فقدْ يكونُ سببُهُ الاتّفاقَ الطَّبيعيَّ مِثلَ اَنْ يُولدَ صحيحاً . وقدْ يكونُ الاتّفاقَ الصِّناعيَّ مِثلَ اَنْ يُسقَى سُمّاً فيبرأَ مِنْ مَرَضٍ كانَ بِهِ . وَاَمَّا الجمالُ وَالضَّخامةُ فعلّتُهما الاتّفاقُ الصِّناعيُّ وَالطَّبيعيُّ وَجُملةُ الامرِ اَنَّ الخيراتِ الّتي سببُها الجدُّ الّذي هُوَ حُسْنُ الاتّفاقِ هِيَ الخيراتُ الّتي يكونُ المرءُ مَغبوطاً بِها مَحسوداً عليها . وقدْ يكونُ

اَلْجِدُّ عِلَّةً لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَاِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِالْاِضَافَةِ وَالْمُقَايَسَةِ اِلَى الْغَيْرِ . كَمَا قَدْ يَكُونُ الْقُبْحُ فِي حَقِّ اِنْسَانٍ خَيْرًا مَا اِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ اَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ اَنْ يَكُونَ اِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَاَصَابَ اَحَدَهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ الثَّانِيَ فَاِنَّ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ يَرَى اَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالْاِضَافَةِ اِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ . وَبِخَاصَّةٍ اِنْ كَانَ ذٰلِكَ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ اَنْ يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ اِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ اِذَا وَجَدَ الْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ . قَدْ يَرَى اَنَّهُ خَيْرٌ بِالْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَاِنْ كَانَ الْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجِدِّ . وَاَمَّا تَعْرِيفُ الْفَضِيلَةِ فَاَوْلَى الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا . لِاَنَّ الْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِالْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْفَضِيلَةَ وَالْفَضَائِلَ وَاِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ فَالْمَادِحُ اِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَالْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ اَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدأُ بِعَونَةِ ٱللهِ تَعالَى فِي هٰذهِ ٱلْمَقالَةِ بِذِكرِ ٱلفَرقِ بَينَ ٱلخَيرِ وَٱلسَّعادَةِ بَعدَ انْ نَذكُرَ الفاظَ ارِسْطاطاليسَ اقتِداءً بِهِ وَتَوفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلخَيرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱستَحسَنَهُ مِنْ آراءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقصُودُ مِنَ ٱلكُلِّ وَهِيَ ٱلغَايَةُ ٱلاخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذهِ ٱلغَايَةِ خَيرًا فَامَّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ ٱلخَيرُ بِٱلإِضَافَةِ إِلى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعادَةُ اذًا خَيرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعادَةُ ٱلانسانِ غَيرَ سَعادَةِ ٱلفَرَسِ وَسَعادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَامَّا ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَقصِدُهُ ٱلكُلُّ بِٱلشَّوقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلخَيرُ ٱلعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاجْمَعِهِمْ مُشتَرِكُونَ فِيهَا. فَامَّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ خَيرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اذًا بِٱلإِضَافَةِ لَيسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَختَلِفُ بِٱلإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلخَيرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيرَ مُختَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعادَةِ انَّهَا تَكُونُ لِغَيرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَإِنَّمَا هِيَ ٱستِعدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالاتِهَا مِنْ غَيرِ قَصدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا إِرَادَةٍ وَتِلكَ ٱلاستِعدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوقُ اوْ مَا يَجرِي مَجرَى ٱلشَّوقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيْضًا. وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطَاقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلِاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

اَلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

ممدوحة ومنها ما هي بالقوة كذلك وما هي نافعة فيها . فالشريفة منها هي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفاً وهي الحكمة والعقل . والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية . والتي هي بالقوة مثل التهيؤ والاستعداد لنيل الاشياء التي تقدمت . والنافعة هي جميع الاشياء التي تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما هي ليست بغايات . والغايات منها ما هي تامة ومنها ما هي غير تامة . فالتي هي تامة كالسعادة وذلك انا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيئاً آخر . والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتني اشياء اخر . واما التي ليست بغاية البتة فكالعلاج والتعلم والرياضة . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو مؤثر لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثر لاجل غيره ومنها ما هو مؤثر للامرين جميعاً ومنها ما هو خارج عنهما . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو خير على الاطلاق ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقت دون وقت وايضاً منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الاوقات ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولا من جميع الوجوه . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكمية ومنها ما هو في الكيفية وفي سائر المقولات فمنها كالقوى والملكات ومنها

كَالْأَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْأَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنْهَا كَالْآلَاتِ . وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ أَمَّا فِي الْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيْرُ الْأَوَّلُ وَإِنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ مَآلَ الْخَيْرَاتِ الْإِلٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنْهُ . وَأَمَّا فِي الْكَمِيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ . وَأَمَّا فِي الْإِضَافَةِ فَكَالصَّدَاقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ . وَأَمَّا فِي الْأَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْأَنِيقِ الْبَهِجِ . وَأَمَّا فِي الْوَضْعِ فَكَالْقُعُودِ وَالْاِضْطِجَاعِ وَالْاِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ . وَأَمَّا فِي الْمِلْكِ فَكَالْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ . وَأَمَّا فِي الْاِنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ . وَأَمَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ الْأَمْرِ وَرَوَاجِ الْفِعْلِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَأَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي إِذَا بَلَغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ إِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ . (وَأَرِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ إِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ الْبَخْتِ

(وَأَمَّا أَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

اَقسامٍ : (اَحدُهَا) فِي صِحَّةِ ٱلْبَدَنِ وَلُطفِ ٱلْحَوَاسِّ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مِنِ ٱعْتِدَالِ ٱلْمِزَاجِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ وَٱلشَّمِّ وَٱلذَّوْقِ وَٱللَّمْسِ . (وَٱلثَّانِي) فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْاعْوَانِ وَاَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِاَنْ يَضَعَ ٱلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ ٱلْخَيْرَاتِ وَيُوَاسِيَ مِنْهُ اَهْلَ ٱلْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَٱلْمُسْتَحِقِّينَ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقُّ ٱلثَّنَاءَ وَٱلْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ تَحْسُنَ اُحْدُوثَتُهُ فِي ٱلنَّاسِ وَيَنْتَشِرَ ذِكْرُهُ بَيْنَ اَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثِرُونَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ ٱلْاِحْسَانِ وَٱلْمَعْرُوفِ . (وَٱلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مُنْجِحًا فِي ٱلْاُمُورِ وَذٰلِكَ اِذَا ٱسْتَتَمَّ كُلَّ مَا رَوَّى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَٱلْخَامِسُ) اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ ٱلرَّأْيِ صَحِيحَ ٱلْفِكْرِ سَلِيمَ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ ٱلْخَطَإِ وَٱلزَّلَلِ جَيِّدَ ٱلْمَشُورَةِ فِي ٱلْآرَاءِ . فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْاَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ .

(وَاَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هٰذَا ٱلرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورُسَ وَبُقْرَاطَ وَاَفْلَاطُونَ وَاَشْبَاهِهِمْ فَاِنَّهُمْ اَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَلِذٰلِكَ لَمَّا قَسَمُوا ٱلسَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي اَوَّلِ ٱلْكِتَابِ (وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ) . وَاَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي ٱلسَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا اِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيماً نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ. وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءاً مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذٰلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ أَيْضاً أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ. وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يُحَقِّرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِأَنْ تُسَمَّى ٱلسَّعَادَةَ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيباً

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى
ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا
تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى
أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ
ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَاصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ
ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ
إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ
مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ
ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ
أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي
خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ
وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ
بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ
ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ
ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ
ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ
لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى
ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا
قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ
عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل. وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط. فاذا ما دام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية. فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها. واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سابقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيئَةِ وَتِلْكَ مُحَصِّلَةٌ لِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذَا ٱلْأَنْعَامُ إِذَا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوَارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ. وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهَشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاحَبَّ ٱلاقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْاِنْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرَّبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَٱلْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلْاُولَى . . ثُمَّ اَعْلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلِّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ هٰذَا ٱلْاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ اَصْلًا . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ اَرْبَعَةُ اَجْنَاسٍ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ اَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ . وَكَذٰلِكَ اَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ . وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَـةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ اَقْتِنَاءُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَاَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلْعَرَضِ . وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ ٱلصِّحَّةَ . وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْـلُ ٱلطَّبِيبِ . وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ ٱلصِّحَّةَ . وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا اَنْ تَكُونَ اَصْنَافُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ اَنْ تَكُونَ ٱلْاُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَـيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّـةِ . وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَـيْنِ اَحَدُهُمَا اَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّـةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ . وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّـلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا ٱمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طَرْحَ أَمْتِعَتِهِمْ شَرٌّ لَكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهُ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ وَهُوَ ٱلْعَطَبُ. وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا أَرِسْطُو فَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا ٱنْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهَا ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ أَوِ ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَٱلْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي ٱلْخَيْرِ فَإِنَّ ٱلْمُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو ٱلْأَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ ٱلْأَمْرَ فِي ذَٰلِكَ. وَٱللَّذَاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا. وَٱلْأُمُورُ ٱللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا ٱلْمُلْتَذُّ حَسَنَ ٱلْحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي ٱلْخَيْرِ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي ٱلْغَايَاتِ. وَذَٰلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلْعَفَافَ وَكِبَرَ ٱلنَّفْسِ وَٱلنُّبْلَ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ قَدْ تَخْتَارُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذَٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ وَٱلْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ أَشْيَاءَ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ ٱللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلْحَسَنَةِ. وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذْ كَانَ سَبَبًا لِهَذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱللَّذَّةُ وَٱلْآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِكَثْرَةِ ٱلْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّدَاقَةُ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ ٱلْإِخْوَانَ ٱلَّذِينَ بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ ٱلْكَرَامَةَ وَٱلتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذَلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ فَإِنَّ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تُفْعَلُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ وَٱلتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلنَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا ٱلْمَلَكَاتُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلْحَرَكَاتِ. وَكَذَلِكَ ٱلْكَمَالَاتُ مِثْلُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَكَذَلِكَ ٱلسِّيَرُ ٱلْمَحْمُودَةُ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَٱلْبُرْءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهَذِهِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذَلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ وَٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَضْدَادِ هَذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذَلِكَ يَكُونُ فِي هَذِهِ

ٱلصِّنَاعَـةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ أَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَـةٍ مَا أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَـةِ فَنَالَ مِنْهُمُ ٱلْعَدُوُّ وَلٰـكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَـيْرُ كَمَا أَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَـةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُم كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَـدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَـكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَـدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَـدُوَّ وَيَـكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِـيرًا مَا يَـكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِـكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي إِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلِٱفْـتِرَاقِ وَلِذَٰلِكَ قَدْ يَـكُونُ ٱلنَّافِعُ

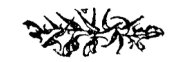
نافعًا للأعداء أيضًا . وأمّا ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدوّ . وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه . وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضًا أحد ما يكون به الشرّ نافعًا أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلًا بعدوّه . فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذ يهوى العدوّ الوارد ضدّ ما يهواه كلّ واحد من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارج . وذلك أنّ كلّ واحد من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج . والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكّدها . وارسطو يقول : ولذلك كثيرًا ما تنفق النفقات العظيمة وتفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يدفع به الشرّ العظيم وإنما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتى كأنّها إذا وجدت هذه الأشياء وجدت الغاية . وقد يكون الشرّ المفرط النازل بالعدوّ أيضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوّ . مثل ما حكى ارسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء لليونانيين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا ٱلشَّيْءِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ أُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْاِصْطِنَاعَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ ٱلْمُصْطَنِعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارَ ٱلْإِنْسَانُ إِنْسَانًا عَظِيمَ ٱلْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ ٱلنَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ ٱلْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرَّ وَبِأَصْدِقَائِهِ ٱلْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِأُومِيرُوشَ مَعَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ وَأَصْدِقَاءَهُ مِنَ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِٱلْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ ٱلْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ ٱلتَّعْظِيمِ حَتَّى ٱعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا إِلٰهِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْأَوَّلَ لِجَمِيعِ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَفِعْلُ ٱلشَّرِّ بِٱلْأَعْدَاءِ وَٱلْخَيْرِ بِٱلْأَصْدِقَاءِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ. وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ ٱلْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يَظُنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذٰلِكَ فَإِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ ٱلْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَهُوَ ٱلسَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي تَـكُونُ مِنْ اَجلِ خَوفٍ إِنَّمَا تَـكُونُ غَيرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْـهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ اَنْ يَـكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهـٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفعُهَا. وَاَمَّا ٱلْمُـكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَـا فَهِيَ ٱلْمُـكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَـكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُـكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ اَكْـثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ اَنْ تَـكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي اُسْدِيَتْ إِلَيْـهِ إِمَّا فِي ٱلْـكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِاَنَّهَا قَدْ فَضَلَتْ عِنْـدَ ٱلْمُـكَافِئِ وَلَيسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُـكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُـكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي اَنْ تَـكُونَ مُـكَافَاتُهُ بِاَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّ ٱلْمُـكَافِئَ كَاَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا اَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْـهِ وَإِمَّا اَنْ يَـكُونَ ٱلنَّقْصُ اَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَـكُنِ ٱلْمُـكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْـلَ اَنْ تَـكُونَ ٱلْمُـكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْـلَ اَنْ تَـكُونَ ٱلْمُـكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِـكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُـكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰـكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَـكُنِ ٱلْمُـكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُـكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيـهِ اَنَّهُ لَيسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُـكَافَاةِ لِمَا هُوَ اَنْقَصُ اَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَـا هُوَ

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَأَتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ . أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَأَةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَأَتَهُ بِٱلْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذٰلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ . وَذٰلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمُ مَوْقِعِهِ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَأَةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَت قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تَنْقُصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلْإِصْطِنَاعَ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قالَ) فمِنْ هٰذهِ الوُجوهِ يأخُذُ الخَطيبُ المُقدَّماتِ التي مِنها يُقنِعُ انَّ الشيءَ نافعٌ او غيرُ نافعٍ. ومِنْ اجلِ انَّ الخَطيبَ قدْ يعترفُ احيانًا بانَّ الامرَ نافعٌ ولٰكنْ يدَّعي انَّ هاهُنا شيئًا هوَ انفعُ فقدْ يحتاجُ انْ تكونَ عِندَهُ مواضِعُ يقدِرُ انْ يُبيِّنَ بها انَّ الامرَ انفعُ وافضلُ. فمِنها انَّ ما كانَ نافعًا في كلِّ الاشياءِ فهوَ انفعُ ممَّا هوَ نافعٌ في بعضِ الاشياءِ. والذي هوَ ادوَمُ نفعًا هوَ انفعُ مِنَ الذي هوَ اقصرُ نفعًا. والذي هوَ اكبرُ هوَ انفعُ مِنَ الاصغرِ. والذي هوَ اكثرُ هوَ انفعُ مِنَ الاقلِّ. والذي جمعَ مِنْ صِفاتِ الخيرِ اكثرَ او جمعَ صِفاتِهِ كلَّها فهوَ انفعُ. وصِفاتُ الخيرِ التامِّ هوَ انْ يكونَ الشيءُ مُختارًا مِنْ اجلِ نفسِهِ لا مِنْ اجلِ غيرِهِ وانْ يكونَ مُتشوَّقًا عِندَ الكلِّ وانْ يكونَ ذوو الفضلِ واللبِّ يختارونَهُ والذي جمعَ هٰذهِ الصِفاتِ كلَّها او اكثرَها فهوَ الخيرُ والنافعُ الذي في الغايةِ وهوَ الغايةُ لسائرِ الاشياءِ التي توصَفُ بالخيرِ. والاشياءُ المتصِفةُ بالخيرِ المتعلِّقةُ بهٰذا الخيرِ الذي

جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنْفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ . وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَوَّلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْإِنَاثِ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلْعَظِيمِ . ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ . فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ . فَٱلْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ . وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا
بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي
ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي
أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ
يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ
ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ
ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ
ٱلنَّافِعِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ
يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا . وَكَذٰلِكَ
ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ
أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا
مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ
ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ
أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ . وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ
وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ . مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ
وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ .
وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ
فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ
غَيْرِهِ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا
وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى اَصْدِقَائِهِ اَوْ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ اَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ اَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى اَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَاَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ اَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ اَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ اَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا اَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى اَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاَحَدُهُمَا اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى اَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ اَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَاَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَيْضًا اَنَّ ٱلْغَايَةَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تَجْعَلُ ٱلْغَايَةَ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلَانًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى ٱلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ ٱلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ ٱلْفَاعِلُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْغَايَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: فُلَانٌ اَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِاَنَّ فُلَانًا هُوَ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَلَوْلَا اِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا ٱلْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ ٱلْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ ٱلْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ ٱلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ اِنَّ ٱلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ اِلَيْهِ. وَاَيْضًا ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا ٱلَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ ٱلْاَعْظَمِ وَٱلْاَقَلِّ عِظَمُ ٱلْمُقَايَسَةِ فِي ٱلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْغَايَاتِ وَٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ ٱلْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ ٱلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْاَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضا فانّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فانّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لانّ نسبة الافعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانّه ان كان البصر آثر من الشمّ فانّ الابصار آثر من الشمّ وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتية فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فانّ العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيما وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني انّ الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضا ان يحبّ الانسان صاحب المال افضل من ان يحبّ المال لانّ حبّ الانسان افضل من حبّ المال. وايضا فانّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك انّ شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضا عكس هذا وهو انّ ما هو افضل فشهوته افضل مثل انّ الحكمة افضل من الصحة فشهوتها افضل من شهوة الصحة. وايضا فانّ العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو انّ التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك انّ الوقوف على الحق لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنائِعُ ٱلعِلْمِيَّةُ أفضلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّةِ وَإِنَّما كَانَا هٰذَانِ ٱلمَوضِعَانِ مُتَلازِمَيْنِ لِأَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسبَةُ فِعلِهَا إِلَى فِعلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمهُورِ أَوِ ٱلأَكثَرُ أَوْ ذَوُو ٱلأَلبَابِ وَٱلأَخيَارُ ٱلصَّالِحُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ وَأفضَلُ فَهُوَ أفضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلأَشيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱستَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ ذَوِي ٱلأَلبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِندَ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيرِ مِنْ أَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ أَعنِي ٱللَّبِيبَةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيرٌ مُطلَقٌ أَوْ خَيرٌ أَفضَلُ مِنْ خَيرٍ مِثْلُ عِلمِهِمْ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلأَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ إِيَّاهَا. وَأَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيرٌ بِٱلإِضَافَةِ إِلَى إِنسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يُرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ أَنَّهُ أَنْ يُجَارَ عَلَيهِ أَفضَلُ مِنْ أَنْ يَجُورَ هُوَ فَإِنَّ هٰذَا ٱلخَيرَ لَا يُدْرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدلِ وَٱلفَضلِ. وَأَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيرَاتِ مَعَهُ أَكثَرُ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمهُورِ يَبتَدِرُونَ إِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ أَجلِ ٱللَّذَّةِ نَفسِهَا لَا مِنْ أَجلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ ابْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَادْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ ٱلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلْاِلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةً اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضًا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ اعني ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْاحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ افضلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ. وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضًا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْاحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ افضلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ. وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْاحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ اصُولُ ٱلْاحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اي قَادِرٌ عَلَى انْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ احكامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ. وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا اشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ اصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ انْ يَقُولُوا فِيهَا. وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ اوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْاشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْاحْكَامِ ٱلْأُوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ انْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْاشْيَاءِ. وَامَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأُوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِئِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ اعني ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا ارِسْطُو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى. وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْابْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ انْ يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ اوِ ٱلْاكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ افضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْاخْذِ قَدْ يُخَيِّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وقلة قبول لقوله وقد يخيل الامر بعكس هذا . وذلك انه ربما كان هؤلاء الابرار الفاضلون مقبولي القول مع انه لم يأخذ احد من الجمهور عنهم اصلًا شيئًا او انما اخذ عنهم قليل . وذلك ان اقاويل هؤلاء قد يظن بها انها مقبولة بجهة اخرى وذلك انه قد يكون المرضي عند الجمهور من ليس مرضيًا في نفسه والاقل من الجمهور وهم ذوو التمييز . وايضًا فان الفاضلين الذين كتموا فضائلهم عن الجمهور هم ممدوحون اكثر وهم اقل وجودًا واعز لانهم انما كتموا فضائلهم عن الجمهور لما خافوا ان يلحقهم من الكرامات والرئاسات التي يخاف اذا لحقت المرء ان تكون سببًا لان تكون هذه الاشياء اللاحقة للفضائل هي المقصودة عنده بالفضائل . فمن ها هنا صارت اقوال هذا الصنف مقبولة كما صارت اقوال الصنف الاول المضاد لهذا مقبولة وهم الذين اخذ عنهم الجمهور

(قال) ومن الصنف المقبول القول من الناس جدًا جدًا الصنف الذين كراماتهم اعظم لان الكرامة لما كانت مكافاة الفضيلة كان المرء كلما عظمت كرامته ظن به انه قد عظمت فضيلته . والصنف من الناس الذين نالتهم المضرة العظيمة والشقاء الكبير لمكان الفضائل هم ايضًا مقبولو الاقوال جدًا جدًا بمنزلة سقراط وغيره والصنف من الناس الذين يرى فيه هذان الصنفان من الناس اعني الذين كرامتهم اعظم والذين نالهم الضرر

ٱلْكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ. فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هَؤُلَاءِ أَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَلِذَٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْأَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذَٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذَٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ. هَٰذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْإِقْنَاعِ فِي هَٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْأَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْأَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا أَوْ فِي ٱلْأَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلْإِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا أَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ. مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَاَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ اَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ اَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ اِلَيْهِ اَشَدُّ هُوَ اَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ اَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَاِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا اَضَرُّ . وَاَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَمْرَيْنِ اَقْرَبَ اِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ اَفْضَلُ . وَاَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ اَفْضَلُ فَاِنَّ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا اَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ اَعْمَارِهِمْ هِيَ اَفْضَلُ مِثْلُ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَاَيْضًا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ اَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا اَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَارِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْاٰخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ اَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ اَنَّهَا ٱلَّتِي اِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ اَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ اَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ .

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِاَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ اَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَاَمَّا حُسْنُ ٱلْاِنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَايضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَانْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ احَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ اِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَالْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَانَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ . وَايضًا فَانَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي اشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ انْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ اعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغَدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ انَّهُمَا عَظِيمَانِ لِانَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ اعْنِي انَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْاحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلِانْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ اعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْاحْزَانِ وَٱلْافْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَاذَا ٱجْتَمَعَا لِامْرِئٍ جَعَلَاهُ اعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ اوْ جَهِلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِانَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْاحْزَانِ ظَنَّ بِهِ انَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا انَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ انْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ انَّهُ احْرَى انْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَانَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ اِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِانَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ احَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ اِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ اِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ فِيهَا بِٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِٱلنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِٱلْمِثَالَاتِ ٱلْمَأْخُوذَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ ٱلْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ ٱلنَّفْعُ أَوِ ٱلضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقَصَصِ وَٱلْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يُثْبَتُ بِهَا أَنَّ ٱلشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَقْتَدِرُ عَلَى جُودَةِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةِ بِٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِشَارَةَ بِٱلسُّنَنِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْإِقْنَاعَ ٱلتَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلَاصُ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقِوَامُهَا. وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلْعَادِلَةُ اَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلْعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلْاَوَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ. وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ اَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلْعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ اَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ اِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ. وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَدْلُ فِي ذٰلِكَ اَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا. وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ اَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخِسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ. وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا اِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ. فَاَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلْاِتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ اِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِاَحَدٍ عَلَى اَحَدٍ فَضْلٌ. وَاَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِاَدَاءِ ٱلْاِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ اَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْاَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْاُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ اَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ. فَاِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ. وَاِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلْاَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلْاِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَاَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْإِقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ اهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ اهْلَ فَضَائِلَ وَاقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَاهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ انْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ اوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلْأَسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمُلْكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَافْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ افْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ ابُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَامَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ انْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَالَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي انْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ . وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا . ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُستَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وهي الأمور الراجعة الى الاختيار

(قال) ومن اجل انه يعرض كثيرًا ان يمدح الناس والروحانيون بالفضيلة وباشياء غير الفضيلة وليس يعرض هذا في مدح هؤلاء فقط بل وفي مدح الاشياء المتنفسة وغير المتنفسة. اعني انها تمدح باشياء خارجة عن الفضيلة. فقد ينبغي ان نقول ها هنا في الاشياء التي تؤخذ منها المقدمات في المدح بالفضائل وبغير الفضائل ليكون القول في ذلك عامًا فنقول: ان الجميل هو الذي يختار من اجل نفسه وهو ممدوح وخير واللذيذ من جهة انه خير. واذا كان الجميل هو هذا فبيّن ان الفضيلة جميلة لا محالة لانها خير وهي ممدوحة. والفضيلة هي ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير او يظن به انه خير اعني الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له. ولذلك كانت موجدة لكل فعل يقصد به نحو غاية ما جليل القدر عظيم الشأن في حصول تلك الغاية عنه. فاما اجزاء الفضيلة فالبر اي العدل العام والشجاعة والمروءة والعفة وكبر الهمة والحلم والسخاء واللب والحكمة. وهذه الفضائل منها ما هي فضائل في ذات الفاضل فقط ومنها ما هي فضائل من جهة انها تفعل في اناس آخرين وهذه التي تفعل في اناس آخرين تكون اعظم عند قوم منها عند آخرين وفي حال دون حال. مثال ذلك ان فضيلة الشجاعة آثر في وقت الحرب منها في وقت السلم. واما فضيلة العدل فمؤثرة في السلم والحرب

جَميعًا . وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلمَحَاوِيجِ . وَإِنَّمَا تَنفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوَّةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلأَقَلِّ وَٱلأَكْثَرِ لِأَنَّ فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ ٱلسَّخَاءِ . فَأَمَّا ٱلبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلأَشْيَاءَ ٱلغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي ٱلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ خَادِمًا لِلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ فِي شَهَوَاتِ ٱلبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ . وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا كِبَرُ ٱلهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلأَفْعَالِ ٱلعَظِيمَةِ وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ . وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا . وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلفَضَائِلِ ٱلخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ صِلَاحِ ٱلحَالِ . فَهٰذَا هُوَ ٱلقَوْلُ فِي ٱلفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلفَضِيلَةَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلفَضَائِلِ مِثْلَ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِارْتِيَاضِ بِٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا . وَأَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا أَعْنِي ٱلأَعْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا . وَٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

الفضائل فهي التي يقال فيها الآن وهي علامات الفضائل وأعراضها اللاحقة لها. وأفعالها إنما يمدح بها إذا كانت حسنة محمودة فإن كثيرا من افعال الفضائل قد لا يمدح بها وكذلك كثير من الأعراض. فمثال الأفعال والأعراض التي هي محمودة أفعال الشجعان في الحرب او من فعل في الحرب فعلهم وإن لم تكن لهم ملكة الشجاعة. وكذلك الأعراض التي تلحق الشجعان مما يمدح بها. ومثال الأفعال التي لا يمدح بها في وقت ما بذل المال فانه فعل من افعال السخاء لكن ربما كان ذلك الفعل على جهة التبذير. ومثال الأعراض التي لا يمدح بها انفعال المرء عن العدل وقبوله إياه وذلك ان فعل العدل ممدوح واما الانفعال عنه فليس بممدوح لأنه يظن به انه مهانة وضيم. وبالجملة فأفعال الفضائل انما تكون ممدوحة إذا كانت مقدرة تقدير العدل ومما يمدح بها الأفعال العظيمة الشاقة التي جزاؤها الكرامة فقط. فإن الأفعال التي يكون جزاؤها الكرامة خير من الأفعال التي جزاؤها المال. ولذلك إذا كان فعل يجازى عليه بالأمرين جميعا ففعله فاعل من اجل الكرامة فقط مدح به وكل ما يفعله المرء من الفضائل لا من اجل نفسه مدح به. وفعل الأشياء التي هي خيرات بإطلاق كذلك مما يمدح به. والأشياء التي في طبيعتها خيرات وإن كانت ضارة للفاعل يمدح بها أيضا. مثل فعل العدل فإن العادل كثيرا ما يستضر به.

وَٱلْأَفعَالُ ٱلَّتِي تَختَصُّ بِإِكرَامِ ٱلْأَموَاتِ مَمدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلأَحيَاءِ إِنَّمَا يَقصِدُ مِنهَا ٱلمَرْءُ أَكثَرَ ذٰلِكَ مَنفَعَةَ نَفسِهِ. وَبِٱلجُملَةِ فَكُلُّ فِعلٍ كَانَ ٱلمَقصُودُ بِهِ ٱلغَيرَ وَلَم يَكُنْ يَنتَفِعْ بِهِ ٱلفَاعِلُ لَهُ أَو كَانَ يَلحَقُهُ مِنهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمدُوحٌ بِهِ. وَٱلفِعلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلمُحسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمدُوحٌ بِهِ أَيضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدلٌ إِذ كَانَ لَيسَ يَنتَفِعُ بِهِ ٱلفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلإِنسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفعَلَ ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي يَفتَضِحُ بِهَا أَهلُ ٱلفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤذِيَهُم بِٱلقَولِ وَٱلفِعلِ. وَكَذٰلِكَ نُصرَةُ ذَوِي ٱلفَضَائِلِ وَمُحَمَّدَتُهُم مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وَٱلخَجَلُ عِندَ ذِكرِ ٱلقَبَائِحِ مِمَّا قَد يَدُلُّ عَلَى ٱلفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلحَيَاءَ يَمنَعُهُ عَن إِتيَانِ تِلكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَد يَكُونُ أَيضًا عَدَمُ ٱلحَيَاءِ عِندَ ذِكرِ ٱلفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَد يُظَنُّ أَنَّ ٱلإِنسَانَ إِنَّمَا يَستَحِي عِندَ ذِكرِ ٱلقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَد فَعَلَهَا أَو نَالَهَا أَو هُوَ مُزمِعٌ أَن يَفعَلَهَا. مِثلُ مَا حَكَى أَرِسطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِٱمرَأَةٍ مَشهُورَةٍ بِٱلحِكمَةِ عِندَهُم وَذٰلِكَ أَنَّ إِنسَانًا مَشهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِٱلقَبِيحِ بِأَن قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَن أَقُولَ قَولًا يَمنَعُنِي عَنهُ ٱلحَيَاءُ فَحَلُمَت عَنهُ وَلَم تُجِبهُ بِقَولٍ قَبِيحٍ وَلَم يُدرِكهَا مِن ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَت تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَولٍ كُلِّيٍّ (وَهُمَا صِنفَا ٱلتَّعرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلكَ ٱلحَالِ جَعَلَت تَمُصُّ ٱلفَضَائِلَ وَتَمدَحُ أَهلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُم وَتُحَامِي عَنهُم. وَكَانَ أَيضًا مَن مَعَهَا لَم يَأنَفُوا

آيضًا لقولِ ذلكَ ولا لتعريضهِ لعلمِهم انَّ مثلَها لا يُتَّهم بمثلِ هذا

(قال) ولذلكَ كانَ التعصبُ للاشياءِ التي تكسبُ المجدَ والمحاماةُ عنها قد تجعلُ المتعصبَ لها والمحامي عنها من اهلِ الفضائلِ التي لا تحصلُ للانسانِ الَّا بمجاهدةٍ كبيرةٍ للطبيعةِ مثلِ العفافِ والشجاعةِ وغيرِهما. وذلكَ اذا صارتْ لهُ ملكةٌ بتردادِ فعلِها والتعصُّبِ لها والمحاماةِ عنها كما عرضَ لهذهِ المرأةِ التي اقتصصنا ذكرَها مع ذلكَ الرَّجلِ. وذلكَ انَّ امثالَ هذهِ الافعالِ قد يصيرُ بها الانسانُ من اهلِ الفضائلِ التي لا تحصُلُ للانسانِ الَّا بمجاهدةٍ كبيرةٍ

(قال) والانعامُ على الغيرِ اذا لم يستفدِ المنعمُ منهُ شيئًا هُوَ مما يُمدحُ بهِ ولذلكَ ما كانَ العدلُ والبرُّ يُمدحُ بهما الانسانُ من جهةِ انهما نافعانِ كما يُمدحُ بهما من جهةِ ما هُما جميلانِ. والانتقامُ ايضًا من الاعداءِ والَّا يُرضى عنهم في حالٍ مما يُمدحُ بهِ. فانَّ الانتقامَ منهم هُوَ جزاءٌ والجزاءُ عدلٌ والعدلُ جميلٌ. ومحبةُ الغلبةِ ايضًا ومحبةُ الكرامةِ مما يُمدحُ بهما لانهما علامتانِ تدلَّانِ على ايثارِ الفضائلِ لا لمكانِ اكتسابِ مالٍ بهما. اما محبةُ الغلبةِ فتدلُّ على ايثارِ الشجاعةِ. واما محبةُ الكرامةِ فعلى ايثارِ جميعِ الفضائلِ ولذلكَ كانتِ الفضائلُ الاثيرةُ المختارةُ هي التي ليسَ يقصِدُ بها مقتنيها الى اكتسابِ مالٍ. لانَّ ذلكَ يدلُّ على شرفِ

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي يُمدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشيَاءِ ٱلَّتِي يُمدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ إِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعْرِهِ لِأَنَّ ٱلْمُوفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمُوفُورِ ٱلشَّعْرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوهِمَ أَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وُجِدَ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمْدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمْدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمْدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱتِّفَاقٍ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَنْجَحَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمْدَحُ ٱلنُّجْحُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الروية . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الروية . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما نمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطاً بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعاً في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكراً مطلقاً امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

إِنَّهُ لَيس يَنبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضلُ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلإِنسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِهِ وَٱختِيَارِهِ . فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِٱلبَختِ وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱختِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنبَغِي أَنْ تُطلَبَ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ . وَٱلأَشيَاءُ ٱلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمكِنُ أَنْ تُستَعمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخرَى . فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُختَلِفَةٌ فَإِنَّ قَومًا يَرَونَ أَنَّ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكتَسَبٍ لِلإِنسَانِ . وَقَومٌ يَرَونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعرِضُ لَهُ وَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلِاختِيَارِ فَٱلمَمدُوحُ مِنهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذمُومُ مِنهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنبَغِي أَنْ يُستَعمَلَ فِي ٱلمَدحِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعظِيمُ ٱلشَّيءِ وَتَنمِيَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي ٱلشَّيءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحدَهُ فَعَلَ هٰذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأنُهُ أَنْ يُفعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعلًا كَبِيرًا . فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعلِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعسُرُ فِعلُهُ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنسَانًا

إنسانًا . ثم انه إن كان الفاعل ممن يقتدى به في افعاله واقواله مرارًا كثيرة فإن فعله عظيم كما قيل : انكم ايها الرهط ائمة يقتدى بكم . والافعال التي يقتدى بها ليست هي الافعال التي تكون بالاتفاق بل الافعال التي تكون عن المشيئة والروية . وهذه الاشياء قد يمكن ان تدخل في المشورة اعني الاشياء التي تعظم الشيء مثل ان يشار على المرء ان يتشبه بالممدوح الاول في ذلك الجنس او يتشبه به في المدح او يشار عليه ان يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع احد في حمدهم . مثل الذين يمدحون في الاسواق او يتشبه بهم في المدح . ومما يعظم الممدوحين ان يقاسوا بالذين يفعلون اضداد افعالهم وذلك عند ذكر افعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم ان يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا انفسهم معهم دائمًا فقد ينبغي ان يشبهوا باولائك وان يجروا مجراهم في المدح وان لم يكونوا وصلوا مراتبهم . فإن فضائلهم في نمو دائم . ومقايسة الانسان نفسه مع غيره لا تصح الا من الرجل الفاضل لموضع حب الانسان لنفسه فهو يرى نقائصه اقل من نقائص غيره وان كانت اعظم . ويرى فضائله اكثر وان كانت اصغر ولذلك ليس كل احد يستطيع المقايسة وانما يستطيعها الفضلاء من الناس ومثل ما حكى ارسطو عن سقراط انه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الاحكام

عَلَى ٱخلَاقِ نَفسِهِ. بِمَعْنَى انَّهُ كَانَ يَنظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَانْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَانْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ انْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ انَّمَا يَنْبَغِي انْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى انَّ امْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اعْنِي ٱلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ انَّ ٱلَّذِينَ اجْهَدُوا انفُسَهُمْ فِي انْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ انَّ تَعْظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدْحِ. فَانَّ ٱلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشْرِيفُ مِنَ ٱلْامُورِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي اذَا أُرِيدَ ٱلتَّعْظِيمُ بِٱلتَّشْبِيهِ انْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ فَانَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْانْوَاعِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِاجْنَاسِ ٱلْاقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ انَّ ٱلتَّعْظِيمَ وَانْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِاجْنَاسِ ٱلْاقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ اخَصُّ بِٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ. لِانَّهُ انَّمَا يُمْدَحُ ٱلْانْسَانُ اوْ يُذَمُّ بِٱلْاشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ اخَصُّ بِٱلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ انْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَامَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ اخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِانَّ مِنَ ٱلْامُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَاعْطَاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْاشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِانْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَامَّا مَعْرِفَةُ ٱلْعَدْلِ وَٱلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدْحِ

وَٱلذَّمّ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ أَوِ ٱلذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يُمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَيُذَمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ أَضْدَادِهَا إِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا أُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَعَمَّهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

اَلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

اَلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا • وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْذُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِي بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلْاِرْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْاِنْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ اِذَا كَانَ سَبِطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَاَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهَنَّكَ بِمَعْنَى لَاَنَّكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلْاِرْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

اَلْاِرْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ. وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ ٱبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقْتَصِرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ إِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلِاقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ إِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمُرَوِّي إِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ :

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جُرَيْجٍ :

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقِي نَضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ إِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِارْتِجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِبِيُّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ إِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلِانْتِجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ.

فَقَالَ: تَلْخِيصُ ٱلْمَعَانِي رِفْقٌ وَٱسْتِعَانَةٌ بِٱلْغَرِيبِ عَجْزٌ وَٱلتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَٱلنَّظَرُ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ ٱللِّحْيَةِ هُلْكٌ وَٱلْخُرُوجُ مِمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ إِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ ٱلْخَطَابَةِ ٱلطَّبْعُ وَعَمُودُهَا ٱلدُّرْبَةُ وَحَلْيُهَا ٱلْإِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَخَيُّرُ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقِلَّةِ ٱلْاسْتِكْرَاهِ وَأَنْشَدَنِي بَيْتًا فِي خُطْبَةِ إِيَادِ

يُومُونَ بِٱللَّفْظِ ٱلْخَفِيِّ وَتَارَةً رَمْيَ ٱلْمَلَاحِظِ خِيفَةَ ٱلرُّقَبَاءِ

(وَقَالَ) ٱبْنُ ٱلْأَعْرَابِي قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا ٱلْإِيجَازُ عِنْدَكَ قَالَ حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ لَهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتِ كَلَامِي قَالَتْ إِلَى أَنْ تُفْهِمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ مَلَّهُ مَنْ فَهِمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظ

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرّف)

قَالَ ٱبْنُ ٱلْجَوْزِيِّ فِي ٱلْمُنْتَخَبِ. لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَوَاعِظُ مَنْدُوبًا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ لِعُمَّالِهِ تَعَاهَدُوا ٱلنَّاسَ بِٱلتَّذْكِرَةِ. وَلِأَنَّ أَدْوَاءَ ٱلْقُلُوبِ تَفْتَقِرُ إِلَى أَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ ٱلْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ أَلَّفْتُ فِي هٰذَا

ٱلفنّ كتبا تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من ٱلمواعظ بٱليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ ٱلحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت ٱلفقهاء في قديم ٱلزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من ٱلالفاظ وٱلاسامي لا يخرج عن مرضاة ٱلاوائل ولذلك ما اخذت من ٱلعلماء ٱلمذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون ٱلجواد وما ذاك الا بمثابة جمع ٱلقرآن ٱلذي ٱبتدأ به ابو بكر وثنى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم ٱلداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ٱبتدعت اذ ليست تخارج عن ٱلاصل ٱلمشروع وقال ٱلحسن ٱلقصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض ٱلقدماء ان ٱلوعظ حبل ٱلله ٱلممدود وعهده ٱلمعهود وظله ٱلعميم وصراطه ٱلمستقيم وحجته ٱلكبرى ومحجته ٱلوسطى وهو ٱلواضح سبيله ٱلراشد دليله ٱلذي من ٱستضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة ٱلله وعهده ووعيده ووعده به يعلم ٱلجاهل ويعمل ٱلعالم ٱلعامل وينتبه ٱلساهي ويتذكر ٱللاهي بشير ٱلثواب ونذير ٱلعقاب وشفاء ٱلصدور وجلاء ٱلامور من فضائله انه يقرأ دائما ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون ٱلدنيا على من جعل ٱلدين امامه وتصور ٱلموت امامه قال بعض ٱلحكماء ٱلحكمة موقظة للقلوب من سنة ٱلغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ وَٱلْعِلْمُ دَوَاءُ ٱلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمُشْحِذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي ٱلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ وَرَوْضَةٌ فِي ٱلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقْصِرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ أَنْطَقَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرُفَ بِهِ ٱلْوَضِيعُ وَأُعِزَّ بِهِ ٱلذَّلِيلُ وَسُوِّدَ بِهِ ٱلْمُسَوَّدُ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلِٱبْتِذَالِ وَيَذْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ لِلّٰهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ ٱلِٱسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلْكَأٌ أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخْيِيرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَبْتُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِٱعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ... حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: ٱقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ نَزَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

إذا فرغ من كلامه: الألسن تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف. وقال يونس بن عبيد: لو أمرنا بالجزع لصبرنا يريد ثقل الموعظة على السمع وجنوح النفس إلى مخالفتها. ومنه قولهم: (أحب شيء إلى الانسان ما منعا). وقولهم: والشيء يرغب فيه حين يمتنع والموعظة مانعة لك مما تشتهي حاملة لك على ما تكره إلا أن تلقاها بسمع قد فتقته العبرة وقلب قدحت فيه الفكرة ونفس لها من علمها زاجر ومن عقلها رادع فيفتح لك باب التوبة ويوضح لك سبيل الإنابة (قال النبي) حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات يريد أن الطريق إلى الجنة احتمال المكروه في الدنيا والطريق إلى النار ركوب الشهوات وخير الموعظة ما كانت من قائل مخلص إلى سامع منصف (وقال بعضهم) الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. وقالوا ما أحسن التاج. وهو على رأس الملك أحسن. وما أحسن الدر. وهو على نحر الفتاة أحسن وما أحسن الموعظة. وهي من الفاضل التقي أحسن. (وقال زياد) أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا. قال الشاعر:

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي

ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرَكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبَهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلْبِدَارَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

حفرْ لهَا مَاءٌ يُريهَا بِدَاءةً   وَأَضمن لهَا حَوضًا وَإن لم تُحفرِ
وَأَرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ   وَأَغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحْجَبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِاضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأُنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِاحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَٱخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ طَيِّبَ ٱلنَّفْسِ مُسْتَقِيمَ ٱلْأَحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحِلِّ وَٱلْحُرْمَةِ. وَإِلَى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ٱلْحَلَالُ بَيِّنٌ وَٱلْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلَى هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ ٱلْمُتَجَدِّدَاتِ ٱلزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ ٱلْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ. لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ ٱلْحَدِيثَ فِيهِ. إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ ٱلْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْخَطِّ. فَغَايَةُ أَمْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَٱلْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ ٱلْأَلْفَاظِ. أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ أَلْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ ٱلْمُرَادَ مِنْهَا. كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ ٱلْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ ٱلْمُعْجِبَ وَٱلْمُطْرِبَ مِنَ ٱللَّحْنِ ٱلْفَاحِشِ وَٱلتَّصْحِيفِ ٱلْقَبِيحِ. فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفسِهِ ٱنتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعضِ اهلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ . وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا . اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ . مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدتُّ هٰؤُلَاءِ . فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدتُّ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ : تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ ٱقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا . وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي . يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمْعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ . اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ . وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ :

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا ... اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ . وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

إلى سِبابٍ وَمُشاتَمةٍ وَٱحتِقارِ قومٍ قوماً ورجعَ بِهِمْ إلى ٱلقدحِ في ٱلسّلفِ وصارَ ٱلاختلافُ بينَ أهلِ ٱلمذاهبِ مُنشئاً لعداوةٍ إنْ لمْ تكنْ فوقَ ٱلعداوةِ بينَ أهلِ ٱلأديانِ فليستْ دونها. فكثيراً ما كانتْ سبباً لِتجريدِ ٱلسّيوفِ يُقاتلُ بعضُهم بعضاً حتّى دخلَ بينهم ٱلحكّامُ لإصلاحِهِمْ وكانوا هُمُ ٱلأولى بذلكَ. وهوَ حقّهمُ ٱلذي ما كانَ ينبغي أنْ يمكّنوا منهُ غيرَهُمْ وصاروا أحزاباً يَنحازُ كلُّ حزبٍ إلى مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ ٱلنّواحي وصارتِ ٱلمدائنُ بمنزلةِ ٱلمعاقلِ وٱلحصونِ حتّى دخلَ أهلُها تحتَ نظرِ ٱلسّياسةِ وقهرِها وبُدِلَتْ سُيوفُ ٱلمنابرِ بقطعِ خشبٍ في صورتِها يتّكئ عليها ٱلخطباءُ حالَ صعودِهمْ وهبوطِهمْ. وآلَ أمرُ ٱلعلماءِ إلى كونِهمْ طائفةً مِنَ ٱلطّوائفِ ٱلمربوبةِ ٱلمسوسةِ تلحظُ حركاتِهمْ أرصادُ ٱلحكومةِ وتأخذُهمْ عيونُها منعاً لتعدّي بعضِهمْ على بعضٍ وحسماً لمادّةِ ٱلشّرِّ بينهمْ. ولعبتْ بهمْ أهواءُ ٱلملوكِ ٱلجائرةِ ٱلجهلةِ مِنَ ٱلتّترِ وٱلدّيلمِ وغيرِهمْ. ونشأَ مِنْ ذلكَ مفاسدُ عظيمةٌ منها تمكّنُ كثيرٍ مِنَ ٱلجهلةِ ٱلّذينَ أمضَوا صدورَ أعمارِهمْ في ٱللّهوِ وٱللّعبِ دونَ فكرةٍ في تحصيلِ سببٍ مِنْ أسبابِ ٱلمعيشةِ حتّى دهمَهمْ وقتُ ٱلاحتياجِ لذلكَ مِنَ ٱلانتسابِ إلى ٱلعلمِ وأهلهِ فصنّفوا كتباً ملأوها أحاديثَ كاذبةً وحكاياتٍ غيرَ معقولةٍ وروّجوها على ٱلعامّةِ وأكلوا بها ٱلخبزَ وخلطوا ما ليسَ مِنَ ٱلدّينِ بهِ. فأيُّ مفسدةٍ أكبرُ مِنْ ذلكَ وليسَ لهُ سببٌ إلّا ٱفتراقُ ٱلعلماءِ وإهمالُهمْ أمرَ ٱلرّعايةِ. ولمْ يزلِ ٱلاختلافُ ٱلّذي هوَ منشأُ تلكَ

ٱلعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعفُ وَتُظْهِرُهُ ٱلقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَل يَسُوغُ لَكَ بَعدَ مَعْرِفَةِ هٰذَا انْ تَقُولَ إِنَّهَا ٱلعُلَمَاء. وَإِنْ قُلتَ إِنَّهَا ٱلوُعَّاظُ قُلتُ هٰذَا اقرَبُ فَإِنَّ ٱلوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اهلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُم اخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلأَموَالِ وَاكثَرُهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا ٱلقِطَعَ مِنَ ٱلعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَهُم. فَكَانَ ٱلوَاعِظُ إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلمَجلِسِ بَسَطَ مِندِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلٌّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِأَجلِ ٱلوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرغِيبِ وَٱلتَّرهِيبِ وَبَعضِ احَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعضِ اشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلوَادِي. وَنُمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلمَسْجِدِ ٱلحُسَيْنِيِّ بَعدَ ٱلعَصرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلجُملَةِ فَمَحْصُولُ تِلكَ ٱلكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطَبِ ٱلمَنَابِرِ. وَإِنْ كَانَ بَعضُ اهلِ تِلكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلفِطْنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَإِنَّ اكثَرَهُمُ ٱلقُصَّاصُ ٱلجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ امرِ ٱلوَاحِدِ مِنْهُم انْ يُلَفِّقَ احَادِيثَ يَضَعُهَا او وَضَعَهَا غَيْرُهُ يُفرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلعَامَّةِ بِمَا يَذكُرُ مِنْ كَثرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ امرِ ٱلمَعصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنزِلَةِ ٱلتَّحرِيضِ عَلَى ٱرتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاستِرسَالِ مَعَ ٱلأَهوَاءِ وَطَرحِ ٱلمُبَالَاةِ ٱعتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِم وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُم مِنْ كَثرَةِ اسبَابِ ٱلمَغفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحمَةِ وَعِظَمِ ٱلعَفوِ إِلَى غَيرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ الطِّبَاعِ وَاسْتِحْكَامِ الْغَفْلَةِ وَالانْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالِ الأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قُوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ السُّوءِ وَالتَّمَاكُرِ بِاسْتِلَابِ الأَمْوَالِ وَقَهْرِ النُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ الأَقْوِيَاءِ الضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُوَلِّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطِّبَاعِ الَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ الاكْتِسَابِ بِجِهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّؤَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ الْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ الطَّوَائِفَ الْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ الْوُجُوهِ الرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ الْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قُوَاهُمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تُخْرِجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ الإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى الاحْتِيَاجِ وَطَلَبِ الْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ انْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانُهُمْ وَأَبْدَانُ نِسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ الْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأَعْمَالِ ٱلْمُتْعِبَةِ وَٱلْمُحَاوَلاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلْحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُو قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِاحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِاعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ . وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا . ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ . وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاكِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ. ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغِيلِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

---

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحُقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذَّرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ … وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ … وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م … وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ … عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ … كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

---

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْـ ـرَ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدَسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُونِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِاللهِ قَسَمًا حقًّا لا آثِمًا فيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ

وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ

لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ(١)

أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: أَنْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا　　حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ ٱلْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي　　وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي ٱلْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: ٱحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ ٱلْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ أَبَيْتُ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ ٱللّٰهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ ٱلثَّكْلَى وَأَذْهَلَ ٱلزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ ٱلْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ ٱلنَّاسِ بِٱلْخَبَرِ ٱلْبَاهِرِ وَٱلشِّعْرِ ٱلنَّادِرِ وَٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلْفَصَاحَةِ ٱلتَّامَّةِ وَٱللِّسَانِ ٱلْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَٱبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ ٱلْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ ٱلْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَٱلْمُنْتَقَى مِنَ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ ٱلْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا ٱنْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ ٱلْكَرَمِ

عِتق منظرٍ وجودة مخبرٍ وسهولة لفظٍ وجزالة منطقٍ ونزاهة نفسٍ وكمال خصالٍ حتّى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامها والمأثور من خصائصها جميع ايام من سواهما من لدن آدم الى ان ينفخ في الصور ويبعث اهل القبور حاشا انبياء الله الكرام وسلف عباده الصالحين لما باهت الّا بهما ولا عوّلت في الفخر الّا عليهما . ولقد كانا مع تهذيب اخلاقهما ومعسول مذاقهما وسنا اشراقهما وكمال خصال الخير فيهما في محاسن المأمون كالنقطة في البحر والخردلة في القفر



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعلَمْ انَّ لِسانَ ٱلعَرَبِ وَكَلامَهُمْ عَلى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلمَنظُومِ وَهُوَ ٱلكَلامُ ٱلمَوْزُونُ ٱلمُقَفَّى وَمَعناهُ ٱلَّذي تَكُونُ اوزانُهُ كُلُّها عَلى رَوِيٍّ واحِدٍ وَهُوَ ٱلقافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثرِ وَهُوَ ٱلكَلامُ غَيرُ ٱلمَوزُونِ . وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشتَمِلُ عَلى فُنُونٍ وَمَذاهِبَ فِي ٱلكَلامِ . فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنهُ ٱلمَدحُ وَٱلهِجاء وَٱلرِّثاء . وَامَّا ٱلنَّثرُ فَمِنهُ ٱلكَلامُ ٱلَّذي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنهُ قافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجعًا . وَمِنهُ ٱلمُرسَلُ وَهُوَ ٱلَّذي يُطلَقُ فِيهِ ٱلكَلامُ اِطلاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ اَجزَاءً بَلْ يُرْسَلُ اِرسَالًا مِنْ غَيرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيرِهَا . وَيُستَعمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرغِيبِ ٱلْجُمهُورِ وَتَرهِيبِهِمْ . وَامَّا ٱلقُرْآنُ فَهُوَ وَاِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنثُورِ اِلَّا اَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي اِلَى مَقَاطِيعَ يَشهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ : اللّٰهُ نَزَّلَ اَحسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ . وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ اِذْ لَيسَتْ اَسجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ اَيضًا قَوَافٍ . وَاُطْلِقَ اَسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتَصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِي . وَٱنظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ اَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ اَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَاَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ اَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ اِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا اِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ . وَٱسْتَمَرَّ

المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتّاب الغفّل جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا اليه. وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطِب والمخاطَب. وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر فوجب أن تنزّه المخاطبات السلطانية عنه اذ أساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسّل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالاً من غير تكلف له. ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصّه من اطناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح أو اشارة وكناية واستعارة. وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

اَلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى ٱلْجُودَةِ أَنْ يَقُولَ أَوَّلًا مَا فِعْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَأَيُّمَا هِيَ أَجْزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ أَصْنَافُ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. وَأَنْ يَجْعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْأَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبْعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرٍ وَكُلُّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ فَهُوَ إِمَّا هِجَاءٌ وَإِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱسْتِقْرَاءِ ٱلْأَشْعَارِ وَبِخَاصَّةٍ أَشْعَارُهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ أَعْنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّرْبُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمْرُ وَٱلرَّقْصُ أَعْنِي أَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبْعِ لِهٰذَيْنِ ٱلْغَرَضَيْنِ. وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ هِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَأَصْنَافُ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ ٱثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا. أَمَّا ٱلِٱثْنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَأَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِأَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَأَنَّ وَإِخَالُ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشْبِيهِ. وَإِمَّا أَخْذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِبْدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ أَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئْتَهُ

وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَدْخُلُ ٱلْأَنْوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ زَمَانِنَا ٱسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

اِلّا انّ الكِنايَاتِ اكْثَرَ ذٰلِكَ هِيَ اِبدالاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ الشَّيْءِ . وَالاسْتِعارَةُ هِيَ اِبْدالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ اعْنِي اِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ اِلَى الثَّاني نِسْبَةَ الثَّالِثِ اِلَى الرَّابِعِ فَاِبْدالُ اسْمِ الثَّالِثِ اِلَى الاوَّلِ وَبِالعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الخِطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ الاِبْدَالاتُ . وَامّا القِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ انْ يُبدَّلَ التَّشْبِيهُ مِثْلَ انْ تَقُولَ : الشَّمْسُ كَانَّهَا فُلانٌ اوِ الشَّمْسُ هِيَ فُلانٌ لَا فُلانٌ كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ الشَّمْسُ

وَالصِّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الاقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ هُوَ المُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا انّ النَّاسَ بِالطَّبْعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالافْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالالْوَانِ وَالاشْكَالِ وَالاصْوَاتِ وَذٰلِكَ امّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلمُحَاكِينَ وَامّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ المُحَاكَاةُ بِالاقَاوِيلِ بِالطَّبْعِ وَالتَّخْيِيلِ . وَالمُحَاكَاةُ فِي الاقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلاثَةِ اشْيَاءَ : مِنْ قِبَلِ النَّغَمِ المُتَّفِقَةِ وَمِنْ قِبَلِ الوَزْنِ وَمِنْ قِبَلِ التَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثْلُ وُجُودِ النَّغَمِ فِي المَزَامِيرِ وَالوَزْنِ فِي الرَّقْصِ وَالمُحَاكَاةِ فِي اللَّفْظِ . اعْنِي الاقَاوِيلَ المُخَيِّلَةَ الغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ الثَّلاثَةُ بِاَسْرِهَا مِثْلَ مَا يُوجَدُ عِنْدَنَا فِي النَّوْعِ الَّذِي يُسَمَّى المُوَشَّحَاتِ وَالازْجَالَ وَهِيَ الاشْعَارُ الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا فِي هٰذَا اللِّسَانِ اهْلُ هٰذِهِ الجَزِيرَةِ اِذْ كَانَتِ الاشْعَارُ الطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتِ

ٱلأَمرَين جميعًا. وَٱلأُمورُ ٱلطَّبيعيَّة إِنَّما تُوجَدُ لِلأُمَمِ ٱلطَّبيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشعَارَ ٱلعَرَبِ لَيسَ فِيهَا لَحنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلوَزنُ فَقَط وَإِمَّا ٱلوَزنُ وَٱلمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفعَلُ فِعلَ ٱلتَّخيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحنِ وَصِنَاعَةُ ٱلوَزنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلمَنطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشعَارًا مَا لَيسَ فِيهَا مِن مَعنَى ٱلشِّعرِيَّةِ إِلَّا ٱلوَزنُ فَقَط كَأَقَاوِيلِ سُقرَاطَ ٱلمَوزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ أَنبَادُقلِيس فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلأَمرِ فِي أَشعَارِ أُومِيرُوش فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلأَمرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَن يُسَمَّى شِعرًا بِٱلحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَينِ. وَأَمَّا تِلكَ فَهِيَ أَن تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحرَى مِنهَا أَن تُسَمَّى شِعرًا وَكَذٰلِكَ ٱلفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحرَى أَن يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِن أَن يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِن أَوزَانٍ مُختَلِطَةٍ لَيسَت أَشعَارًا. وَحُكِيَ أَن كَانَت تُوجَدُ عِندَهُم أَعنِي مِن أَوزَانٍ مُختَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيرُ مَوجُودٍ عِندَنَا فَقَد تَبَيَّنَ مِن هٰذَا ٱلقَولِ كَم هِيَ أَصنَافُ ٱلمُحَاكَاةِ وَمِن أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلتَئِمُ ٱلمُحَاكَاةُ بِٱلقَولِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلفِعلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) وَلَمّا كانَ ٱلمُحاكونَ وَٱلمُشبِّهونَ إنّما يَقصِدونَ بذلكَ أنْ يَحُثّوا على عَملِ بَعضِ ٱلأفعالِ ٱلإراديّةِ وَأنْ يَكُفّوا عنْ عَملِ بَعضِها فَقدْ يَجِبُ ضَرورةً أنْ تَكونَ ٱلأُمورُ ٱلّتي تُقصَدُ مُحاكاتُها إمّا فَضائلَ وَإمّا رَذائلَ وَذلكَ أنّ كُلَّ فِعلٍ وَكُلَّ خُلقٍ إنّما هُوَ تابعٌ لِأَحَدِ هٰذَينِ أعني ٱلفَضيلةَ وَٱلرَّذيلةَ فَقدْ يَجِبُ ضَرورةً أنْ تَكونَ ٱلفَضائلُ إنّما تُحاكى بِٱلفَضائلِ وَٱلفاضِلينَ وَأنْ تَكونَ ٱلرَّذائلُ تُحاكى بِٱلرَّذائلِ وَٱلأرذَلينَ . وَإذا كانَ كُلُّ تَشبيهٍ وَحِكايةٍ إنّما تَكونُ بِٱلحَسَنِ وَٱلقَبيحِ فَظاهِرٌ أنّ كُلَّ تَشبيهٍ وَحِكايةٍ إنّما يُقصَدُ بِها ٱلتَّحسينُ وَٱلتَّقبيحُ وَقدْ يَجِبُ مَعَ هٰذا ضَرورةً أنْ يَكونَ ٱلمُحاكونَ لِلفَضائلِ أعني ٱلمائلينَ بِٱلطَّبعِ إلى مُحاكاتِها أفاضِلَ . وَٱلمُحاكونَ لِلرَّذائلِ أنقَصُ طَبعًا مِنْ هٰؤلاءِ وَأقرَبُ إلى ٱلرَّذيلةِ وَعَنْ هٰذَينِ ٱلصِّنفَينِ مِنَ ٱلنّاسِ وُجِدَ ٱلمَديحُ وَٱلهَجوُ . أعني مَدحَ ٱلفَضائلِ وَهَجوَ ٱلرَّذائلِ وَلِهذا كانَ بَعضُ ٱلشُّعَراءِ يُجيدُ ٱلمَدحَ وَلا يُجيدُ ٱلهَجوَ وَبَعضُهُمْ بِٱلعَكسِ أعني يُجيدُ ٱلهَجوَ وَلا يُجيدُ ٱلمَدحَ فَإذَنْ بِٱلواجِبِ ما كانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشبيهٍ وَحِكايةٍ هٰذانِ

ٱلْفَضْلَانِ أَعْنِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلتَّقْبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلْفَضْلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ لَا ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلْقَوْلِ فَصْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقْصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ أَوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفْسُ ٱلْمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلْمَادَّةِ ٱلْمُعَدَّةِ لِأَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى ٱلطَّرَفَيْنِ أَعْنِي أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً إِلَى ٱلتَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً إِلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ أَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ أُومِيرُوشَ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلْمُحَسِّنَةِ وَٱلْمُقَبِّحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلْأَمْرَيْنِ مِثْلُ أُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِأَصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأَنْتَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصْرٍ فِي ٱلنَّهَمِ وَٱلْكِرِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلْفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلْوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ أَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْكَرَمِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَحُثُّ ٱلْعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا مِنَ ٱلْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلْفَضِيلَتَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ ٱلْأَشْعَارَ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتَذُّ بِٱلتَّشبِيهِ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِٱلمُحَاكَاةِ لَهَا. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى
أَنَّ ٱلإِنسَانَ يُسَرُّ بِٱلتَّشبِيهِ بِٱلطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ أَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ
بِمُحَاكَاةِ ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي لَا نَلتَذُّ بِإِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ
ٱلمُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ ٱلاِستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
مِنَ ٱلحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي يَعمَلُهَا ٱلمَهَرَةُ مِنَ ٱلمُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ ٱلعِلَّةِ
أُستُعمِلَ فِي ٱلتَّعلِيمِ عِندَ ٱلإِفهَامِ وَٱلتَّخَاطُبِ ٱلإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ
مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ ٱلأَمرِ ٱلَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ
ٱلإِلتِذَاذِ ٱلَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي ٱلإِشَارَاتِ مِن قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ
ٱلتَّخيِيلِ فَتَكُونُ ٱلنَّفسُ بِحَسَبِ ٱلتِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قُبُولًا لَهُ. فَإِنَّ
ٱلتَّعلِيمَ لَيسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ
مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ ٱلفَيلَسُوفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ ٱلتَّعلِيمُ بِٱلطَّبعِ
يَصدُرُ مِنَ إِنسَانٍ إِلَى إِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ ٱلإِنسَانِ ٱلمُعَلِّمِ
مِنَ ٱلإِنسَانِ ٱلمُتَعَلِّمِ وَٱلإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ
لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ ٱلمُسَارَعَةِ إِلَى
ٱلفَهمِ وَٱلقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلاِلتِذَاذِ لِمَوضِعِ
ٱلتَّخيِيلِ ٱلَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلعِلَّةُ ٱلأُولَى ٱلمُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَأَمَّا
ٱلعِلَّةُ ٱلثَّانِيَةُ فَٱلتِذَاذُ ٱلإِنسَانِ أَيضًا بِٱلطَّبعِ بِٱلوَزنِ وَٱلأَلحَانِ فَإِنَّ
ٱلأَلحَانَ يَظهَرُ مِن أَمرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ ٱلَّذِينَ فِي طِبَاعِهِمْ
أَن يُدرِكُوا ٱلأَوزَانَ وَٱلأَلحَانَ فَٱلتِذَاذُ ٱلنَّفسِ بِٱلطَّبعِ بِٱلمُحَاكَاةِ
وَٱلأَلحَانِ وَٱلأَوزَانِ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ

وبخاصّة عند الفطر الفائقة في ذلك فاذا نشأت الأمة تولّدت فيهم صناعة الشعر من حيث انّ الاوّل يأتي منها اوّلا بجزء يسير ثمّ يأتي من بعده بجزء آخر وهكذا الى ان تكمل الصناعات الشعريّة . وتكمل ايضاً اصنافها بحسب استعداد صنف صنف من الناس للالتذاذ اكثر بصنف صنف من اصناف الشعر . مثال ذلك انّ النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشئ اوّلا صناعة المديح اعني مديح الافعال الجميلة . والنفوس التي هي اخسّ من هذه هي التي تنشئ صناعة الهجاء اعني هجاء الافعال القبيحة وان كان قد يضطرّ الذي مقصده الهجاء للشرار والشرور ان يمدح الاخيار والافعال الفاضلة ليكون ظهور قبح الشرور اكثر اعني اذا ذكرها ثمّ ذكر بازائها الافعال القبيحة . فهذا ما في هذا الفصل من الامور المشتركة لجميع الامم او للاكثر وسائر ما يذكر فيه فكلّه او جلّه ممّا يخصّ اشعارهم وعادتهم فيها وذلك انّه يذكر اصناف الصناعات الشعريّة التي كانت تستعمل عندهم وكيف كان منشأ واحدة واحدة منها بالطبع وايّ جزء هو المتقدّم منها في الكون على ايّ جزء وبخاصّة في صناعة المديح وصناعة الهجاء المشهورتين عندهم ويذكر مع هذا اوّل من ابتدأ صناعة صناعة من تلك الصنائع الشعريّة المعتادة عندهم ومن زاد فيها ومن كمّلها بعد . وهو في هذا الباب يثني على اوميروش ثناء كثيرًا ويعرف انّه الذي اعطى مبادئ هذه الصنائع وانّه لم يكن لاحد

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ. قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُعَدُّ بِهَا صَوْتَهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلْاِسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلْاِسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلْاِكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجَادُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَخَصُّ ٱلْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقَيِّ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخَيَّلَ. وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلْمُنْشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْأَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

ٱلمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ. ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلمَقُولِ فِيهِ. وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِاسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ. وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ. فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ. فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً: ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتَغْنِي بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ. وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ وَٱلِٱسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَامَّا انْ تُوطِىءَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقلُ مِنْهُ الي مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْادَارَةِ وَامَّا انْ يُحَاكِي ٱلشَّيْءُ نَفْسَهُ دُونَ انْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلْاسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْاُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ اوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ اعْنِي انَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَانَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْاُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِانَّ ٱلْالْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ انْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلْالْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْانْسَانُ بِٱلنَّظَرِ الَى صُوَرِ ٱلْاشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ انْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْاصْبَاغِ وَٱلْالْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزِّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلْاعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا اوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ انَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ الَّا انَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ ايْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْاقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْاقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلْاعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْاقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَاخِرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْاعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إِنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِٱحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعَرِّفُ مِمَّاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَإِذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ. فَاِنَّ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَبْدَإِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ اُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَاُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ اِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً اِلْغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِاَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلًّا وَكَامِلَةً وَٱلْكُلُّ وَٱلْكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلْآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ اِذْ كَانَ ٱلْوَسَطُ فِي ٱلْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَاِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلْجُبَنَاءِ وَٱلْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلْوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَدُّ ٱلْفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلْوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلْاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلْاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ
وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ
اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ
وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ
بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجَوْدَةَ فِي
ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ
وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ
نَوْعِهِ اَنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي
ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ
ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي
ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ
اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ
ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا
كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي
ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ
اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ
ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ
يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي
ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ
يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلعَادَةُ عِندَ ٱليُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَامَّا بِتَأجِيلِ ٱلأَيَامِ كَالحَالِ عِندَنَا إِذْ كَانَ ٱلمُعْتَمَدُ فِي ٱلخُصُومَاتِ عِندَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلمَدِيحِ بِٱلمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلمَاءِ اوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلحَالِ فِي ٱلأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلأُمُورِ ٱلمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ جَمِيعَ ٱلمُتَكَوِّنَاتِ اذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلكَوْنِ سُوءُ ٱلبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلحَالُ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلمُحَاكَاةِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ اَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ اَلَّا يُطَوِّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلوَاحِدِ ٱلمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ اَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلوَاحِدِ ٱلمُشَارِ إِلَيْهِ اَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا اُومِيرُوسَ. وَاَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَٱلمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلمَدْحِ اَعْنِي اَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ اَسْبَابِ ٱلمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ اَوْ قَوْسٍ اشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَاَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلمَمْدُوحِ. وَبِٱلجُمْلَةِ فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

اعني ان تكون انما تفعل جميع ما تفعله من اجل غرض واحد وغاية واحدة. واذا كان ذلك كذلك فواجب ان يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودا به غرض واحد وان يكون لاجزائه عظم محدود وان يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وان يكون الوسط افضلها فان الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام اذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر ايضا مما قيل من مقصد الاقاويل الشعرية ان المحاكاة التي تكون بالامور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى امثالا وقصصا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر انما يتكلم في الامور الموجودة او الممكنة الوجود لان هذه هي التي يقصد الهرب عنها او طلبها او مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. واما الذين يعملون الامثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وان كانوا قد يعملون تلك الامثال والاحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك ان كليهما وان كانا يشتركان في الوزن فاحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وان لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الاحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل الا بالوزن فالفاعل للامثال المخترعة والقصص انما يخترع اشخاصا ليس لها وجود اصلا ويضع لها اسماء واما الشاعر فانما يضع اسماء لاشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر اقرب الى الفلسفة من صناعة اختراع الامثال وهذا الذي

قالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي الشِّعْرِ الَّذِي يُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هُوَ الأَمْرَ الطَّبِيعِيَّ لِلأُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَاكْثَرُ مَا يَجِبُ اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ اَنْ تَكُونَ الأَشْيَاءُ الْمُحَاكَيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا اَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ الْمَدِيحَ اِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ التَّحْرِيكِ اِلَى الأَفْعَالِ الإِرَادِيَّةِ فَاذَا كَانَتِ الأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ الإِقْنَاعُ فِيهَا اَكْثَرَ وُقُوعًا اَعْنِي التَّصْدِيقَ الشِّعْرِيَّ الَّذِي يُحَرِّكُ النَّفْسَ اِلَى الطَّلَبِ وَالْهَرَبِ. وَامَّا الأَشْيَاءُ الْغَيْرُ الْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا اَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ اِلَّا اَقَلَّ ذَلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ الْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ اَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهَذَا النَّحْوُ مِنَ التَّخْيِيلِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ اَفْعَالِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْمُخْتَرَعِ وَانْفِعَالَاتِهِ لِلأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ فَإِنَّ هَذَا النَّحْوَ مِنَ التَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ الطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هَذَا الْبَابِ لِلْعَرَبِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ الْحَثِّ عَلَى الْفَضِيلَةِ قَوْلُ الأَعْشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... اِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِالْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ اُمٍّ تَحَالَفَا ... بِاَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَاِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَظَاهِرٌ اَنَّ الشَّاعِرَ اِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ الْخُرَافَاتِ وَالأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ التَّشْبِيهِ

وَٱلْمحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذَٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذَٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلْاعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَفَنِّنَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَالَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَعْمَالِ فَكَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ. وَٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَسِيطَةُ هِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعَيِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِدَارَةَ أَوِ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلِٱسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا ٱلصِّنْفَانِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبْتَدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِٱعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ يُبْدَأَ أَوَّلًا بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِٱلْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ ٱلْمَقْصُودِ مَدْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يُنَفِّرُ ٱلنَّفْسَ عَنْهُ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلْمَمْدُوحِ نَفْسِهِ مِثْلًا أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلسَّعَادَةَ وَأَهْلَهَا ٱبْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ ٱلشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا ٱلِٱسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ ٱلشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ مَا خَالَطَ بِٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ ٱلِٱسْتِدْلَالُ وَٱلْإِدَارَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي ٱلْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةِ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

اوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ وَٱلْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ

اَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ

اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي

وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ اسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْإِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ . وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي اِنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اَجزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اَجزَاءً خَاصَّةً بِاَشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْءُ اَكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَاِمَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْءُ ٱلْاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلْاِنْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي ٱسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

اخبرنا بها. فاما من اي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحركة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء مخوفة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتدعها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ. وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلْانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخَيُّلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلأَصْدِقَاءِ. وَامَّا عَدُوُّ ٱلعَدُوِّ اَوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيسَ يُذْكَرُ لَا
فِي ٱلمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي
اَنْ تَكُونَ ٱلخُرَافَةُ ٱلمُخِيفَةُ ٱلمُحْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلبَصَرِ
يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِاَنَّهُ اِذْ كَانَتِ ٱلخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا
اَوْ اُخْرِجَتْ مَخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلفِعْلَ ٱلمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ
اَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي
ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلقَصَصِ
ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ اَرَاذِلَ لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِاَحَدِ
قَوْلَيْنِ اِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَامَّا قَوْلٍ لَيسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ
ٱلخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ
ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ
مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَاَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ
كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ اِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلفَضَائِلِ
لَيسَ تُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ
ٱلمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلفِعْلُ لَيسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ
بِوَجْهٍ مِنَ ٱلوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ اَيْ
لَذَّةٍ اتَّفَقَتْ لٰكِنْ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلاِلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلفَضَائِلِ
وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ
ٱلاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ
حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَاَمَّا ٱلاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلاِلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوفَ فَإِنَّمَا يَقْـدِرُ ٱلإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ. أَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَـةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوفٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَـنْزِلُ بِٱلأَعْدَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَـا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِـهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِثْلَ ٱلأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّـينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلَ قَتْلِ ٱلإِخْوَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلآبَاءِ ٱلأَبْنَاءَ أَوِ ٱلأَبْنَاءِ ٱلآبَاءَ وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَـكُونَ بِٱلأَفْعَالِ ٱلْفَاضِـلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَـكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَـكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلأُكْـذُوبَاتِ أُدْخِلَ مِنْـهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى. وَأَمَّا ٱلأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعن مَعْرُوفِـينَ فما احسنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلذي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلافعالِ (قَالَ) فَامَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلاشعارُ وَكَيفَ يَنبَغِي انْ يَكُونَ تركيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَامَّا ايُّ ٱلعَادَاتُ هِيَ ٱلعَادَاتُ ٱلَّتي يَنبَغِي انْ تُحَاكَى فِي ٱلمدحِ فَقَدْ يَجِبُ انْ نَقُولَ فِيهَا فَنقولُ إِنَّ ٱلعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلمدحِ ٱلجيدِ اعني ٱلَّذي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ ارْبَعَةٌ إِحْدَاهَا ٱلعادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ. فَإِنَّ ٱلَّذي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنفسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلاشياءِ ٱلحَقِّ ٱلْمَوجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَانْ كَانَ فِيهِ اشياءُ لَيستْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ انْ تَكُونَ ٱلعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذٰلِكَ انَّ ٱلعَادَاتِ ٱلَّتي تَلِيقُ بِٱلمَرْاةِ لَيْستْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ انْ تَكُونَ مِنَ ٱلعَادَاتِ ٱلْمَوجُودَةِ فِيـهِ عَلَى اتَمِّ مَا يُمْكِنُ انْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشبهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ انْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاطْرَافِ وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِانَّ ٱلعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَانْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ إِمَّا حَقِيقِيَّـةٌ وَإِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَإِمَّا مَشْهُورَةٌ اوْ شَبِيهَـةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلٌّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِاُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

أَنواعٌ كثيرةٌ فمنها أن تكونَ ٱلمحاكاةُ لِأشياءَ محسوسةٍ بأشياءَ محسوسةٍ مِنْ شأنِها أنْ توقِعَ ٱلشكَّ لِمَنْ ينظُرُ إليها وتوهِمُ أنّها هي لِاشتراكِها في أحوالٍ محسوسةٍ وذلكَ مِثلُ تسميتِهِمْ لِبعضِ صُوَرِ ٱلكواكبِ سرطانًا ولِبعضِها مُمسِكَ ٱلحربةِ لِأنّها مِنْ جهةِ ٱلشكلِ يُمكِنُ أنْ يتوهَّمَ متوهِّمٌ أنّها هي هي. وجُلُّ تشبيهاتِ ٱلعربِ راجعةٌ إلى هذا ٱلموضعِ ولِذلكَ كانتْ حروفُ ٱلتشبيهِ عندَهُمْ تقتضي ٱلشكَّ وكلَّما كانتْ هذهِ ٱلمتوهَّماتُ أقربَ إلى وقوعِ ٱلشكِّ كانتْ أتمَّ تشبيهًا وكلَّما كانتْ أبعدَ مِنْ وقوعِ ٱلشكِّ كانتْ أنقصَ تشبيهًا وهذهِ هيَ ٱلمحاكاةُ ٱلبعيدةُ وينبغي أنْ تُطرَحَ وذلكَ مِثلُ قولِ ٱمرِئِ ٱلقيسِ في ٱلفرسِ:

كأنّها هِراوةُ مِنوالِ

ومِثلُ قولِهِ:

إذا أقبلتْ قلتَ دُبّاءةٌ   مِنَ ٱلخضرِ مغموسةٌ في ٱلغُدُرْ
وإنْ أدبرتْ قلتَ أُثفيّةٌ   مُلَمْلَمَةٌ ليسَ فيها أُثُرْ

وإنْ كانَ هذا أقربَ مِنَ ٱلأوّلِ لِأنَّ فيهِ مُقابلةً ما. ومنها أنْ تكونَ ٱلمحاكاةُ لِأمورٍ معنويّةٍ بِأمورٍ محسوسةٍ إذْ كانَ لِتلكَ ٱلأمورِ أفعالٌ مناسبةٌ لِتلكَ ٱلمعاني حتّى تُوهِمَ أنّها هي مِثلُ قولِهِمْ في ٱلمِنّةِ إنّها طوقُ ٱلعنقِ وفي ٱلإحسانِ قيدٌ كما قالَ أبو ٱلطيّبِ:

ومَنْ وجدَ ٱلإحسانَ قيدًا تقيّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ . وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُثُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ . فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ   فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ   سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا
وَكَانُوا كَفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ   وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمَقَالَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا　　لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا　　وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يَغْلُهُ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ　　لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى　　دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى

فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا　　وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا ٱبْيَاضُ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ أَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ ... وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ ... وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَأَيْتُهُ ... وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُّهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي أَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْأَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ :

أَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ ... حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْأَصَمِّ ٱلْأَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي ... وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ أَنَّ أُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلِاسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ

ٱلإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ.

(قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي
أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قُتَّةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يَحْصُلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْاِسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْخَالُ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الْاسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الْانْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنَ

ٱلأشياء ٱلموصوفة وجب ان يكون ٱلتخييل ٱلفاضل هو ٱلذي لا يتجاوز خواص ٱلشيء ولا حقيقتها فمن ٱلناس من لقد ٱعتاد او من فطرته معدة نحو تخييل ٱلاشياء ٱلقليلة ٱلخواص فهؤلاء تجود اشعارهم في ٱلمقطعات ولا تجود في ٱلقصائد ومن ٱلشعراء من هو على ضد هؤلاء وهم ٱلمقصدون كالمتنبي وحبيب وهم ٱلذين ٱعتادوا ٱلقول في ٱلاشياء ٱلكثيرة ٱلخواص او هم بفطرهم معدون لمحاكاتها او ٱجتمع لهم ٱلامران جميعا (قال) ومن ٱلتخييلات وٱلمعاني ما يناسب ٱلاوزان ٱلطويلة ومنها ما يناسب ٱلقصيرة وربما كان ٱلوزن مناسبا للمعنى غير مناسب للتخييل وربما كان ٱلامر بالعكس وربما كان غير مناسب لكليهما وامثلة هذه مما يعسر وجودها في اشعار ٱلعرب او تكون غير موجودة فيها اذ اعاريضهم قليلة ٱلقدر (قال) وقد يضاف الى ٱلاشياء ٱلتي بها قوام ٱلاشعار امور من خارج وهي ٱلهيئات ٱلتي تكون في صوت ٱلشاعر وصورته على ما تقدم واكثر ما توجد هذه من ٱلشعراء ٱلمستعملين لها في ٱلاشعار ٱلانفعالية مثل ٱلتي تقال في اهل ٱلجحيم وغيرهم ولما كنا قد قلنا في ٱلاشياء ٱلتي تتقوم بها ٱلاشعار ٱلتي هي اجزاؤها بالحقيقة فقد ينبغي ان نقول في هذه ايضا فنقول: ان هذه ٱلافعال بالجملة هي ٱلتي تدل عليها ٱلاقوال ٱلتي تسمى ٱلانفعالية ولذلك ينبغي اذا ٱستعملت هذه ان تستعمل مع هذه ٱلاقاويل. وذلك ان هذه تري ٱلانفعال ٱلذي يقصد بالقول تثبيته كانه قد وقع

وَٱسْتَيْقِنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ أَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلْإِنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تَثْبُتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ أَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ هَا هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلْإِنْفِعَالَاتِ وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلْأَشْيَا ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَأَمَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تُهَجِّنُهَا إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ بِحَضْرِ ٱلْمَلَإِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شَرُفْتَ مِنْ أَجْلِهِ   يَزْعُمُ هٰذَا أَنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ . وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ
(قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ اما حَقِيقِيٌّ وَامَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ
وَامَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلْإِسْتِعْمَالِ وَامَّا مُزَيَّنٌ وَاما مَعْمُولٌ وَامَّا مَعْقُولٌ
وَامَّا مُفَارَقٌ وَامَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلْإِسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا
بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ
ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْإِسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ
ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ   امَّا ٱلْإِسْمُ ٱلنَّادِرُ
ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ امَّا مِنَ ٱلنوعِ إِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ
تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَامَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ
حَرَكَةً وَامَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً
وَامَّا انْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى
رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ
ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ
انَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَامَّا
ٱلْإِسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلْإِسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا
وَيَكُونُ هُوَ اوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي اشْعَارِ
ٱلْعَرَبِ وَانَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَاكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ
هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ
عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِسْتِعَارَةِ اعْنِي ٱلْمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ ابِي
ٱلطَّيِّبِ :

اِذَا كَانَ مَا تَنوِيهِ فِعْـلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبلَ اَنْ تُلقَى عَلَيْـهِ ٱلجَوَازِمُ

وَرُبَمَا ٱستَعمَلُوا تَصرِيفًا لَمْ يُستَعمَلْ قَبلُ مِثلُ قَولِهِ :

تَفَاوحَ مِسْكُ ٱلغَانِيَاتِ وَرَندُهُ

وَامَّا ٱلْمُفَارِقُ وَٱلْمَعقُولُ فَلَيسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسمَاءٌ كَانَتْ تُجعَلُ بَعضُ اَجزَائِهَا نَغَمًا فَتَزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيـلَ اَنَّهُ يَعنِي بِٱلْمُفَارِقِ ٱلاَسمَاءَ ٱلْمُغَـيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقصَانِ مِنهَا وَٱلحَذفِ اَوِ ٱلقَلبِ وَقِيلَ بَلْ يَعنِي بِذٰلِكَ ٱلاَسمَاءَ ٱلَّتِي يَعسُرُ ٱلنُّطقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱسمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِندَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِاسمُ ٱلْمَعقُولُ فَاِنَّـهُ فِيمَا اَحسِبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلمُختَلِفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ ٱلِاسمُ ٱلمَحذُوفُ بِٱلنُّقصَانِ مِثلُ ٱلاَسمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِندَنَا وَامَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُستَعَارَةُ ٱلَّتِي تُستَعَارُ اِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثلُ تَسمِيَتِهِمِ ٱلـكَوكَبَ نَسرًا وَاِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثلُ تَسمِيَتِهِمِ ٱلشَّمسَ جَونَةً وَاِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثلُ تَسمِيَتِهِمِ ٱلشَّحمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفضَلُ ٱلقَولِ فِي ٱلتَّفهِيمِ اِنَّمَا هُوَ ٱلقَولُ ٱلْمَشهُورُ ٱلْمُبتَذَلُ ٱلَّذِي لا يَخفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلاَقَاوِيـلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلاَسمَاءِ ٱلْمَشهُورَةِ ٱلْمُبتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبلُ ٱلحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُستَولِيَـةَ وَٱلاَهلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثلُ شِعرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَومٍ مَشهُورِينَ عِندَهُمْ . وَيَنبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ ٱلغَالِبِ عَلَى اَشعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلاَلفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلعَرَبِ (قَالَ) وَٱلاَقَاوِيلُ ٱلعَفِيفَـةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْاُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِاَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْاَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْاُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْاِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْاَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْاِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْاَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْاَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوازَنَتِهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَجْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذَكَرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحَمْلِ وَٱلْحَمَلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِيرُ وَامَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ. وَامَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي اجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى انْحَاءِ ارْبَعَةٍ احَدُهَا انْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ اوْ يَأْتِيَ بِٱلْاضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ اوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ اوْ يَأْتِيَ بِٱلْاشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ ارْبَعَةِ اشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبْ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ ارْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ اتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ اسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ اقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي انْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْاوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ

كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ ٱلْابْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ انْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ أَبُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُؤُ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَٱلقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا أَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلقَوْلِ ٱلحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلمِقْدَارِ وَبِٱلأَسْمَاءِ ٱلغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ ٱلقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ أَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلقَوْلُ ٱلحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا أَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِٱلأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ:

يَا دَارُ أَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ ... قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا أُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَأَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَأَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلإِنْسِ وَٱلأُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلأَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُوازَنَةِ وَالْمُدافَعَةِ وَالْإِبْدالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْراجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقابِلِ إِلَى الْمُقابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْواعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنا مَجازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقائِلِ: فُلانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسانِ لا الْإِنْسانُ سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلا طائِرٌ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ وَمِثالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقائِلِ: ما فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذا الْمَعْنَى قَوْلُ النّابِغَةِ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الْكَتائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضائِلَ لِيَنْفِيَ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْها ما لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيراتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدادِ فِي شَيْءٍ واحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْواعُها الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيّاتِ

وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ اِحْصَاءُ اَنْوَاعِهَا ٱلْاَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ اَقْتَصِرَ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ هُوَ اَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ اَبْيَنُ وَاَظْهَرُ وَاَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ اِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْاَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَٱلْاَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ اِلَى جُودَةِ ٱلْاِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاِبْدَالَ اِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ اَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْاِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْاِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْاَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْاَسْوَدِ اَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ اَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْاَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ اِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَاَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْاَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَاَمَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْاَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ

البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا انَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ انَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ احْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ احْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تَنْقُلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَاثْنَى ثَنَاءً عَامًا عَلَى اوميرُوش. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُر:

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ   تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
ارْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ   وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ   مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ اطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ   فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَارَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ   يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قَالَ) وَأَجْزَاءُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ هِيَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلْعَفِيفَةِ مِنَ ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ وَٱلتَّرْكِيبِ مِنْهُمَا. وَرُبَّمَا كَانَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا ٱنْفِعَالِيًا كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ. وَتَمْنَائِعُ ٱلشِّعْرِ وَأَحْكَامُهَا فِي ٱلتَّلْحِينِ وَٱلْغِنَاءِ أَحْكَامُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ. وَذَكَرَ فُرُوقًا بَيْنَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَبَيْنَ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ ٱلْأُخَرِ عَنْهُمْ وَخَوَاصَّ تَخْتَصُّ بِهَا تِلْكَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلْأُخَرُ فِي ٱلْأَوْزَانِ وَٱلْأَجْزَاءِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَٱلْقَدْرِ وَأَنَّ هَاهُنَا أَوْزَانًا هِيَ ٱلَّتِي بِبَعْضِ ٱلْأَشْعَارِ مِنْ بَعْضٍ وَذَكَرَ مَنْ أَجَادَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَنْ لَمْ يُجِدْ وَأَثْنَى فِي هٰذَا كُلِّهِ عَلَى أُومِيرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خَاصٌّ بِهِمْ وَغَيْرُ مَوْجُودٍ مِثَالُهُ عِنْدَنَا إِمَّا لِأَنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذِي ذَكَرَ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ لِلْأَكْثَرِ مِنَ ٱلْأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضَ لِلْعَرَبِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ ٱلطَّبْعِ وَهُوَ أَبْيَنُ فَإِنَّهُ مَا كَانَ لِيُثْبِتَ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِمْ بَلْ مَا هُوَ مُشْتَرَكٌ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلشَّاعِرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَسِيرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُحَاكَى كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أُومِيرُوشُ فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَعْمَلُ صَدْرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى مَا يُرِيدُ مُحَاكَاتَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْتِيَ فِي ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْتَدْ لٰكِنْ مَا قَدِ ٱعْتِيدَ فَإِنَّ غَيْرَ ٱلْمُعْتَادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لِأَنَّ لِلأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ :

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ   إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ :

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ   قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلأَكْثَرِ لَا فِي ٱلأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذُنَيْهِ أُذُنٌ ثَالِثٌ ... مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلَ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبِبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلبُيُوتِ مِنَ ٱلحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلعَادَةُ. وَٱلمَوْضِعُ ٱلخَامِسُ انْ يَأْتِيَ بِٱلأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ وَٱلقُرْءِ وَٱلجَلْدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ اهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ انْ يَتْرُكَ ٱلمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلإِقْنَاعِ وَٱلأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلفِرَارِ:

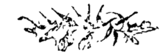
ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلأَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ انْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ اغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافٍ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَا هُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا

مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا   نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ أَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ أَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْأَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلْأَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحَرْثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَأَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى ٱلْيَوْمِ وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَأَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ أَوْسٌ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةَ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ اَوسِ زُهَيْرٌ وَكَانَ اوسُ زَوْجَ اُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ اَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ ٱخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱدَّعَتِ ٱلْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا اَنَّهُ ٱلْاَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِاَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَٱدَّعَتِ ٱلْيَمَانِيَةُ لِٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَٱلْمُرَقِّشِ ٱلْاَكْبَرِ وَإِيَادٌ لِاَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ اَنَّ ٱلْاَفْوَهَ ٱلْاَوْدِيَّ اَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلْمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ اَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ ٱلْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي اَمَالِيهِ) قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلْاَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ ٱلْاِسْلَامِ اَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعْرَ ٱبْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ): ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ اَنَّهُ اَشْعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى ٱلنَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ : أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمَنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: اَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ اَبُو عَمْرِو ابْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ اَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ اَحَدًا. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ اَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ اِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ اِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى اِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ اِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ اِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ اَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ اَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ اِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ اِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى اِذَا شَرِبَ. وَكَانَ اَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ اَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَاَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَاَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اِنَّ اَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: اَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ اَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ لِاَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ اَبْطَلَ وَاَسْقَطَا مِنْ اَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحٰرِثَ بْنَ حِلِزَّةَ وَاَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّهَا اُخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ اِذَا كَانَتْ اَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ اِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ   كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى   فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ   فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاس مَرَّةً اُخرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ: اَرْبَعَةٌ ٱمْرُوءُ ٱلقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلفَرَزْدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُوءُ ٱلقَيْسِ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلاَخْطَلُ: ٱلاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحْمَرَ: زُهَيْرٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: طَرَفَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلاِتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي اِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ: اَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ ٱلإِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً: مَنْ اَشْعَرُ ٱلعَرَبِ فَقَالَ: اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ اَوْسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: اُفْتُتِحَ الشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: اَلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلْجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلْإِسْلَامِيُّ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَعْشَى وَٱلْأَخْطَلُ وَأَبُو ٱلْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ ٱلْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلِٱشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْحَسَنِ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلْآدَابِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللّٰهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّوْرِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقَّهُ كُلَّهُ اِذَا اَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ:

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمُ كُلَّ لَيْلَةٍ ... بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنُقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى ٱلْاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءَ احسنَهُ وَيُلغِي مَا لَا يَستحسِنُهُ فَلَيسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ اقوامًا أرَادُوا أَنْ يَرفعُوا انفُسَهمُ ٱلوَضِيعَةَ وَيَشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلخَامِلِ وَيُعلُوا اقدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِالطَّعنِ عَلَى اهلِ ٱلفَضْلِ وَٱلقَدْحِ فِيهِمْ فَلَا يَزدَادُونَ بِذٰلِكَ إِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزدَادُ ٱلآخَرُ إِلَّا ارْتِفَاعًا. أَلَا تَرَى إِلَى ٱبْنِ ٱلْمُعتَزِّ قَدْ قُتِلَ اسوَأَ قِتلَةٍ وَدَرَجَ فَلَم يَبقَ لَهُ خَلَفٌ يُقرِّظُهُ وَلَا عَقِبٌ يَرفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ اخبَارِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلعُلُومِ إِلَّا رِفعَةً وَعُلُوًّا وَلَا نَظَرَ إِلَى اضدَادِهِ كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعنِهِ وَتَقرِيظِ انفُسِهِمْ. وَاسلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِثلَهُمْ فِي ثَلبِهِ وَٱلطَّعنِ عَلَيهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا اشعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيهِمِ ٱلمُحَصِّلُ ٱلمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلبِهِ فِي ٱلآدَابِ إِلَى ٱلتَّشنِيعِ بِأَمرِ ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى آلِ أَبِي طَالِبٍ عِندَ ٱلمُكتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيبِ انفُسِهِمْ بِذٰلِكَ إِلَى عَيبِهِ وَٱرتَكَبُوا أَكثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبدُ ٱللّٰهِ حَسَنَ ٱلعِلمِ بِصِنَاعَةِ ٱلمُوسِيقَى وَٱلكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي ذٰلِكَ وَفِي غَيرِهِ مِنَ ٱلآدَابِ كُتُبٌ مَشهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ بَينَهُ وَبَينَ عُبَيدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَينَ بَنِي حَمدُونَ وَغَيرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضلِهِ وَغَزَارَةِ عِلمِهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقعَةً إِلَيهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ٱبْنِ حَمدُونَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنكَرُ أَنْ يُغَيِّرَ ٱلإِنسَانُ بَعضَ نَغَمِ ٱلغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ. فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً   فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ   عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)
وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (ارَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْأَ يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَبِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا.
وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلٌّ اشْعَارُهُمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: ٱتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْأَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ

البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلمُغَلَّبونَ فمنهم نابغةُ بنُ جعْدةَ ومعنى ٱلمُغلَّب ٱلذي لا زالَ مغلوبًا قال امرؤ ٱلقيس:

فانَّكَ لم يفخرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبْكَ مثلُ مغلَّبِ

يعني اذا قدر لم يُبقِ وقد غلب على الجعديّ اوسُ بنُ مغراء وليلى ٱلاخيليَّة وغيرُهما. وقيل انَّ موتَ الجعديّ كانَ بسببِ ليلى الاخيليَّة فرَّ من بين يديها فماتَ في الطَّريق مُسافرًا . وَٱلمُغلَّبون ٱلزِّبرقانُ غلبهُ عمرو بنُ ٱلاهتم وغلبهُ ٱلمُخبَّلُ ٱلسَّعديُّ وغلبهُ ٱلحُطيئةُ وقالَ يونسُ بنُ حبيبٍ كانَ ٱلبعيثُ مُغلَّبًا في ٱلخُطَب

قالَ ٱبنُ رشيقٍ في ٱلعُمدةِ في بابِ ٱلقُدماءِ وٱلمُحدَثين: كلُّ قديمٍ من ٱلشُّعراءِ فهو مُحدَثٌ في زمانهِ بالاضافةِ الى من كانَ قبلهُ وكانَ ابو عمرو بنُ ٱلعلاءِ يقولُ لقد حسُنَ هذا ٱلمولَّدُ حتَّى هممتُ ان آمرَ صِبيانَنا بروايتهِ يعني بذلكَ شعرَ جريرٍ وٱلفرزدقِ فجعلهُ مولَّدًا بالاضافةِ الى شعرِ الجاهليَّةِ وٱلمُخضرمين وكانَ لا يعدُّ ٱلشِّعرَ الَّا ما كانَ للمُتقدِّمين قالَ ٱلاصمعيُّ: جلستُ اليهِ عشرَ حِجَجٍ فما سمعتُهُ يحتجُّ ببيتٍ اسلاميٍّ وسُئلَ عن ٱلمولَّدين فقالَ: ما كانَ من حسنٍ فقد سُبِقوا اليهِ وما كانَ من

قبيحٍ. فهوَ مِنْ عِندِهِمْ لَيسَ ٱلنَّمطُ واحداً. هٰذا مذهبُ ابي عمرو وَاصحابِهِ كالاصمعيِ وَابنِ الاعرابيِ اعني انَّ كلَّ واحدٍ منهم يَذهبُ في اهلِ عصرهِ هٰذا ٱلمذهبَ وَيُقدِّمُ مَنْ قبلَهم وَليسَ ذٰلكَ لشيءٍ الّا لحاجتهم في ٱلشعرِ الى ٱلشاهدِ وَقلَّةِ ثقتهم بما يأتي بهِ ٱلمولَّدونَ فامَّا ٱبنُ قُتَيبةَ فقالَ: لم يقصرِ ٱللهُ ٱلشعرَ وَٱلعلمَ وَٱلبلاغةَ عَلى زمنٍ دونَ زمنٍ وَلا خصَّ قوماً دونَ قومٍ. بل جعلَ ذٰلكَ مُشتَركاً مقسوماً بَينَ عِبادِهِ في كلِّ دهرٍ وجعلَ كلَّ قديمٍ حديثاً في عصرهِ. ثُمَّ قالَ ٱبنُ رشيقٍ في بابٍ آخرَ: طبقاتُ ٱلشعراءِ اربعٌ جاهليٌّ قديمٌ ومُخضرَمٌ وهوَ ٱلذي ادركَ ٱلجاهليةَ وَالاسلاميُّ ومُحدَثٌ ثُمَّ صارَ ٱلمحدَثونَ طبقاتٍ اولى وَثانيةً على ٱلتدريجِ هٰكذا في ٱلهبوطِ الى وقتنا هٰذا فليعلمِ ٱلمتأخرُ مقدارَ ما بقيَ لهُ مِنَ ٱلشعرِ متصفّحاً اشعارَ مَنْ قبلَهُ لينظرَ كم بينَ ٱلمخضرَمِ وَٱلجاهليِ وَبينَ ٱلاسلاميِ وَٱلمخضرَمِ وَانَّ للمحدَثِ ٱلاوَّلِ فضلاً عمَّنْ بعدَهُ في ٱلمنزلةِ. ففي ٱلجاهليةِ وَٱلاسلاميِّينَ مَن ذهبَ بكلِّ ملاحةٍ ورشاقةٍ وسبقَ الى كلِّ طلاوةٍ ولباقةٍ (قالَ) ابو ٱلحسنِ ٱلاخفشُ: يُقالُ ماءٌ خِضرِمٌ اذا تناهى في ٱلكثرةِ وَٱلسعةِ فمنهُ سُمّيَ ٱلرجلُ ٱلذي شهدَ ٱلجاهليةَ وَٱلاسلامَ مخضرَماً كأنَّهُ استوفى ٱلامرينِ (قالَ) ويُقالُ: اذنٌ مخضرَمةٌ اذا كانت مقطوعةً فكأنَّهُ انقطعَ عنِ ٱلجاهليةِ الى ٱلاسلامِ. (وَحكى) ٱبنُ قُتَيبةَ عنِ ٱلاصمعيِ قالَ: اسلمَ قومٌ في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلَطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي　　وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ　　شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا . وَقَالِيَةُ ٱلْاَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ ٱلْخُنفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ اَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ : مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَاَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ :

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ ... وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
اِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهْ ... زَلَّتْ بِهِ اِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ اَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

اَلشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنَّ اَرْبَعَهْ ... فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ ... وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ : وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِاَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ . قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ : اَنْشَدَتْهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ اَيْ اَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ : اِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ اَيْ اَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ : هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ . اه . وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي : قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي ... صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَاَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي : ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ : نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ :

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْإِزَا ... رِ فَذَلِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ : أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلْإِضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُحْوِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ   مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرْكَ بَيِّنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضرًا . وَامَدُّ عضرا وَذلكَ انَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ اَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِانْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيّ قَالَ : حَدَّثَنَا اَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاء حدَّثَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ : دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ :

تَخِفُّ ٱلْاَرْضُ إِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ : اَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِاَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا اَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَامَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ . فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْاَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ اَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاء فِي هٰذَا اَعْذَرُ لِاَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَانْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عَفْوًا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَنِّسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسْطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتْقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ ٱلْقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسَقَهُ ٱلْكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ ٱلْجَارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو ... لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ ... أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ فِي ٱلْقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَاكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذٰلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلْبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكُرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أَنظَفُ أَصحابِهِ شِعرًا وَأَكثَرُهُمْ بَـدِيعًا وَأَفتنانًا وَأَقرَبُهُمْ قَوافِيَ وَأَوزانًا وَلا أَرَى وَرَاءَهُ غايَةً لِطالِبِها في هٰذا ٱلبابِ. غَيرَ أَنَّا لا نَجِدُ أَلمُبتَدِئَ في طَلَبِ ٱلتَّصنِيعِ وَمُزاوَلَةِ ٱلـكَلامِ أَكثَرَ أَنتِفاعًا مِنـهُ بُمطالَعَةِ شِعرِ حَبيبٍ وَشِعرِ مُسلِمِ بنِ ٱلوَليدِ لِما فِيهِما مِنَ ٱلفَضيـلَةِ لِمُبتَغِيها وَلِأَنَّهُما طَرَقا إِلَى ٱلصَّنعَةِ وَمَعرِفَتِها طَرِيقًا سابِلَةً وَكَثَّرا مِنها في أَشعارِهِما تَكثِيرًا سَهَّلَها عِندَ ٱلنَّاسِ وَجَسَّرَهُمْ عَلَيها. عَلَى أَنَّ مُسلِمًا أَسهَلُ شِعرًا مِن حَبيبٍ وَأَقَـلُّ تَـكَلُّفًا وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَـكَلَّفَ أَلبَديعَ مِنَ ٱلمُوَلَّدينَ وَأَخَذَ نَفسَهُ بِٱلصَّنعَةِ وَكَثَّرَ مِنها وَلَمْ يَـكُنْ في أَلأَشعارِ ٱلمُحدَثَةِ قَبلَ مُسلِمٍ إِلَّا ٱلنُّبَذُ ٱليَسيرَةُ. وَهُوَ زُهَيرُ ٱلمُوَلَّدينَ كانَ يُبطِئُ في صَنعَتِـهِ وَيُجيدُها. وَقالُوا: أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ ٱلبَديعَ مِنَ ٱلمُحدَثِـينَ بَشَّارُ بنُ بُردٍ وَهُوَ ساقَـةُ ٱلعَرَبِ وَآخِرُ مَنْ يُستَشهَدُ بِشِعرِهِ ثُمَّ أَتبَعَهُما مُقتَـدِيًا بِهِما كُلثُومُ بنُ عَمرٍو ٱلعَتَّابِيُّ وَمَنصُورٌ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسلِمُ بنُ ٱلوَليدِ وَأَبُو نُواسٍ وَأَتبَعَ هٰؤُلاءِ أَبُو تَمَّامٍ وَٱلبُحتُرِيُّ وَعَبدُ ٱللهِ بنُ ٱلمُعتَزِّ فَٱنتَهَى عِلمُ ٱلبَديعِ وَٱلصَّنعَةِ وَخُتِمَ بِهِ. وَشَبَّهَ قَومٌ أَبا نُواسٍ بِٱلنَّابِغَةِ لِما ٱجتَمَعَ لَهُ مِنَ ٱلجَزالَةِ مَعَ ٱلرَّشاقَةِ وَحُسنِ ٱلدِّيباجَةِ وَٱلمَعرِفَةِ بِمَدحِ ٱلمُلُوكِ. وَأَمَّا بَشَّارٌ فَقَـدْ شَبَّهُوهُ بِٱمرِئِ ٱلقَيسِ لِتَقَدُّمِهِ عَلَى ٱلمُوَلَّدينَ وَأَخذِهِمْ عَنهُ. وَمِنْ كَلامِهِمْ: بَشَّارٌ أَبُو ٱلمُحدَثِينَ. وَسَمِعنا أَبا عَبدِ ٱللهِ غَيرَ مَرَّةٍ يَقُولُ: إِنَّما سُمِّيَ أَلأَعشَى صَنَّاجَةَ ٱلعَرَبِ لِأَنَّـهُ أَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ ٱلصَّنجَ في شِعرِهِ. قالَ وَيُقالُ بَلْ سُمِّيَ صَنَّاجَةً لِقُوَّةِ طَبعِهِ وَحِلْيَةِ شِعرِهِ يُخَيِّلُ إِلَيكَ إِذا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد اقصر شعره عروضًا وألينه كلامًا فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع

انقضى كلام عبد الله ورجعنا الى القول في الطبع والتصنيع. فإذا كان الشاعر مصنعًا فان جيده من سائر شعره كأبي تمام. فصار محصورًا معروفًا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبًا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبًا من قريب كالبحتري ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن ابي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر حفر ورأس صنتع

وذكر قول ابي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر ان الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما اشرف في اللفظ من الحافر الاحفر الا ان ابا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي اراه ان ابن الرومي ابصر بأبي تمام وغيره منا وان التسليم له والرجوع اليه احزم. غير اني لو شئت ان اقول ولست رادًا عليه ولا معترضًا بين يديه ان المعنى الذي اراده وأشار اليه من جهة ابي تمام انما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما اشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. واما اللفظ الذي ذكر انه لا يبالي به انما هو فصيح

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ٱدَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ إِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْمُقَعَّبَ أَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْأَخْفَرِ. فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَا قُلْتُهُ فِي أَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَإِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَإِنَّمَا هُوَ هٰذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ. وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ: كَمَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِّيًا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا أَعْرَابِيًّا فَإِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَأَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَٱسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ: وَٱللّٰهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْأَدَبِ غُرَبَاءُ. وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَأَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا أَنْشَدَهُ: يَا أَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ. فَقَالَ لَهُ: وَأَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ. وَيُرْوَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ أَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَأَجَابَهُمَا. وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ إِنَّمَا أَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ أَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ. وَأَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ. وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ أَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ إِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا. وَمِنْ

اَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلُ ٱلْغَنَوِيُّ. وَقَدْ قِيلَ اِنَّ زُهَيْرًا اَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ. وَمِنْهُمْ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ. وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ: قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْاَصْمَعِيِّ. وَسَاُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَاَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهْلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... اُطَاُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا اِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى ٱللّٰهُ اَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

فَلَوْ اَنَّ اَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى ٱلْوَطَنِ اَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَاَخِّرُ ٱلْعَصْرِ. وَمَا اَخُطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَنْتَعِقُ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نُظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَاَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْاَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَخْمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

ايضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه . والبيت من الشعر كالبيت من الابنية والشعر قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه القلم وبابه الدربة وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون . وصارت الاعاريض والقوافي كالموازين والامثلة للابنية او كالاواخي والاوتاد للاخبية . واما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فانما هو زينة مستأنفة لو لم تكن لاستغني عنها . قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان . قال ولست افصل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد الا انني ارى حاجة المحدث الى الرواية امس واجده الى كثرة الحفظ افقر فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان المطبوع الذي لا يمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ولا رواية ولا طريق الى الرواية الا السمع وملاك السمع الحفظ . وقال دعبل في كتابه من اراد المديح فبالرغبة ومن اراد الهجاء فبالبغضاء ومن اراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن اراد المعاتبة فبالاستبطاء : فقسم الشعر كهذه الاقسام الاربعة وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت . الا انه جعل العتاب

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلْإِفْصَاحِ وَٱلْإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرْمَانَهُ وَقَدْ رَأَيْتُ عَمَلَ ٱلْبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلْأَبْيَاتَ وَيُبْرِزُ وُجُوهَ ٱلْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلْكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بَنِيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلْمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطحاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَدَرٍ غَمْرِ

وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَينِ إِلَى ٱلعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمسُ ٱلمُضِيئَةُ لِلبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلمَمدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطنَبَ وَذَلِكَ مَحمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلمَذمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنهَا وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَستَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعطِيَهُ صِفَةَ غَيرِهِ فَيَصِفَ ٱلكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلقَاضِيَ بِٱلحَمِيَّةِ وَٱلمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقتِنَا وَهُوَ خَطَاءٌ إِلَّا أَنْ تَصحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمَلِكُ بِبَعضِ مَا يَجِبُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ فِي مَدحِ ٱلمُعتَزِّ:

لَا ٱلعَذلُ يَردَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعنِيفُ عَن كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنكَرَهُ عَلَيهِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ عُبَيدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلخَلِيفَةَ عَنِ ٱلكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلهِجَاءِ أَولَى مِنهُ بِٱلمَدحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخطَلِ قَولُهُ فِي عَبدِ ٱلمَلِكِ بنِ مَروَانَ هٰذَا ٱلبَيتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَةَ مِنهُمُ
لِأَبيَضَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدبِ

وَقَالُوا : لَوْ مَدحَ بِهـذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ.
وَاجوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ :

وَارَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا اخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ :

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْوًا وَيُظْلَمُ احْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلَ وَٱلْعِفَّةَ وَٱلْعَدَالَةَ وَٱلشَّجَاعَةَ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرَ مَالُهُ
وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا
كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ :

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهُ . فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ :
(أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ
ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ
وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ
وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا
يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ
ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ
ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ
ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ
ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلْاِنْظِلَامَ
وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ
ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ
مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ .
وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ
تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلْاِقْتِصَارُ عَلَى
أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ
ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ
ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ
ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ بِمَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةِ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةِ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةِ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ. وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ . وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ :

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ
وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ . وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ م وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي . قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ : مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلِٱخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِـهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَـدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عُرَابَـةُ بِٱلْيَمِـينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَـةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَـهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ ... إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِـلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَـهُ ٱلرَّدَى ... وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا ... حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُـهُ عَبِقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِـينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إنَّ ٱلمَكارِمَ وَٱلمعْرُوفَ أَودِيَةٌ ... أَحلَّكَ ٱللهُ مِنها حَيثُ تَجتَمِعُ
إذا رَفعتَ أَمرأً فٱللهُ رافِعُهُ ... وَمَنْ وَضعتَ مِنَ ٱلأَقوامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمينِ ٱللهِ مُعتَصِماً ... فَلَيسَ بِٱلصَّلَواتِ ٱلخَمسِ يَنتَفِعُ
إنْ أَخلَفَ ٱلغَيثُ لَمْ تُخلِفْ أَنامِلُهُ ... أَوْ ضاقَ أَمرٌ ذَكَرْناهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدخُلْ. فَقالَ مُحَمَّدُ بنُ وُهَيبٍ: فِينا مَنْ يَقولُ خَيرًا مِنهُ وَأَنشَدَ:

ثَلاثَةٌ تُشرِقُ ٱلدُّنيا بِبَهجَتِهِمْ ... شَمسُ ٱلضُّحى وَأَبو إسحاقَ وَٱلقَمَرُ
تَحكي أَفاعِيلُهُ في كُلِّ نائِبَةٍ ... ٱلغَيثَ وَٱللَّيثَ وَٱلصَّمصامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدخالِهِ وَأَحسَنَ صِلَتَهُ

وَقالُوا لَمّا حَضَرَتِ ٱلحُطَيئَةَ ٱلوَفاةُ قالَ: بَلِّغُوا ٱلأَنصارَ أَنَّ أَخاهُمْ أَمدَحُ ٱلنّاسِ حَيثُ يَقولُ:

يُغشَوْنَ حَتّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسأَلونَ عَنِ ٱلسَّوادِ ٱلمُقبِلِ

قالَ ثَعلَبٌ بَلْ قَولُ ٱلأَعشى:

فَتًى لَوْ يُنادي ٱلشَّمسَ أَلقَتْ قِناعَها
أَوِ ٱلقَمَرَ ٱلسّاري لَأَلقى ٱلمَقالِدا

أَمدَحُ مِنهُ. وَقالَ أَبو عَمرِو بنُ ٱلعَلاءِ: بَيتُ جَريرٍ

أَلَستُمْ خَيرَ مَنْ رَكِبَ ٱلمَطايا ... وَأَندى ٱلعالَمينَ بُطونَ راحِ

أَسيَرُ ما قيلَ في ٱلمَدحِ وَأَسهَلُهُ. وَقالَ غَيرُهُ: بَلْ قَولُ ٱلأَخطَلِ:

شُمْسُ ٱلعَداوَةِ حَتّى يُستَقادَ لَهُمْ ... وَأَعظَمُ ٱلنّاسِ أَحلاماً إذا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ ابِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلقَيْنِيِّ

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلجِزْعَ ثَاقِبُهْ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ ابِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكَ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ ابِي ٱلطَّمَحَانِ اشْعَرُهَا . قَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ ابِيهِ اَنَّهُ قَالَ : اَجْمَعَ اهْلُ ٱلعِلْمِ انَّ بَيْتَيْ ابِي نُوَاسٍ اجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

اَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلاَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
اِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى اَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكُنْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلوَاحِدِ عَنْ اَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلاَعْرَابِيِّ يَقُولُ : اَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْاَلُ ٱلاَيَّامَ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ
وَاَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ

يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ

فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ :

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ

بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ

هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

---

(١) وكان الاصل : بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلُ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عُدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَائِمًا   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلْإِفْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلْإِفْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا   وَلَا تَغِيبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ اِلَيْهِ حَسَنٌ. وَانكَرَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى ابِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ اِنَّمَا اخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٍ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ الْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَاِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَدْحِ انْ يَجْعَلَ الْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءَ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَدْحِ نَصِيبًا. وَاِذَا حُصِّلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ النَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ الْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِاَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ اِلَى وَلَدِهِ كَانْتِقَالِ مَالِهِ فَاِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَازْدَادَ وَاِنْ اُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَعُمُّ الْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ الْقِسْمُ الْاَوْفَرُ وَالْحَظُّ الْاَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ. وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الْاِخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَاِنْ احْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى الْاَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ اوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ :

وَاِنِّي وَاِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي السِّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحِ الْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... اَبَى اللّٰهُ انْ اَسْمُو بِاُمٍّ وَلَا اَبِ

وَمِنَ الْفَخْرِ مَا قَالَ الْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ اِسْحَاقَ بْنِ اِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ .

يَفْخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أُرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ

أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلُ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ

أَلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَزَاوِيدِ

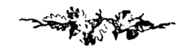
سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارٍ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .

وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مَعْشَرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذْقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيسَ بَينَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدحِ فَرقٌ إِلَّا أَنْ يُخلَطَ بِٱلرِّثَاءِ شَيءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقصُودَ بِهِ مَيْتٌ مِثلَ كَانَ أَو عَدِمنَا كَيتَ وَكَيتَ أَو مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعلَمَ أَنَّهُ مَيْتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ أَن يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسرَةِ مَخلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْأَسَفِ وَٱلِٱستِعظَامِ إِنْ كَانَ ٱلْمَيتُ مَلِكًا أَو رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصنِ بنِ حُذَيفَةَ:

يَقُولُونَ حِصنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُم ... وَكَيفَ بِحِصنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ

وَلَمْ تَلفِظِ ٱلْمَوتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ

فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ ٱلْقَومِ وَهوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: أَنعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَأَنَّنِي أَفطَرتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ إِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَولِ كَأَنَّمَا جَاهَرتُ نَهَارًا بِٱلْإِفطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَستَعظِمُهُ مِنْ فِعلِي وَهٰذَا مَعنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفظٍ رَدِيءٍ غَيرِ مُعرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفسِ. وَمِنْ أَفضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَولُ

ٱلْحُسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِٱبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللّٰهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا إِدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالْ وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالْ

هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ اَنْ يَضْرِبُوا ٱلْاَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْاَعِزَّةِ وَٱلْاُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْاُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ اَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي اَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَاَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ اِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ اَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَالَّذِي صَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ اَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْاَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْاَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي اَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ اَوَّلُهَا :

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ اَثْنَاءِ ٱلْاَمَلْ   وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا اشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَاَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا اَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي اَوَّلِهَا نَسِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ اَخِيهِ خَالِدٍ :

اَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ   لِعَاقِبَةٍ اَوْ اَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْاَحْوَلِ اَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِاَبِي مُحَاقَةَ اَعْشَى بَاهِلَةَ اِنَّمَا هِيَ لِاَبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَاَسْمُهَا اَلدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ اَنَّ اَلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ اَهْلِ اللُّغَةِ اَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَةٌ اَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَاَنَا اَقُولُ اِنَّهُ اَلْوَاجِبُ فِي اَلْجَاهِلِيَّةِ وَالْاِسْلَامِ اِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِاَنَّ اَلْآخِذَ فِي اَلرِّثَاءِ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ اَلنَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ اَلْحَسْرَةِ وَالْاِهْتِمَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَاِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ اَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ اَخَذَ بِثَارِهِ وَاَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ اَلْعَجِيبِ اَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ اَلطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ اَلْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ اَللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ   وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ اَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ اَلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ اَلنَّبِيِّ هٰذَا اَلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اِغْبَرَّ آفَاقُ اَلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ   شَمْسُ اَلنَّهَارِ وَاَظْلَمَ اَلْعَصْرَانِ

وَالنِّسَاءُ اَشْجَى اَلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ اَلْمُصِيبَةِ وَاَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ اَللهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضُعْفِ اَلْعَزِيمَةِ

فَانْظُرْ اِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ اَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا اَشْجَى لَفْظَهَا وَاَظْهَرَ اَلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ اَلْاَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ اَلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا اَبْنَةَ اَلْاَقْوَامِ اِنْ لُمْتِ فَلَا   تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْاَلِي

وَمِنْ اَشَدِّ اَلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى اَلشَّاعِرِ اَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا اَوِ اَمْرَاَةً لِضِيقِ اَلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ اَلصِّفَاتِ. اَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِاَبِي

ٱلطِّيبِ وَهُوَ نَخْلٌ مُجَوَّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلوَجْهِ ٱلمُكَفَّنِ بِٱلجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ ٱلحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِاسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ . قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرْ

ٱللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَٱصبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَورَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ ٱلأُمُورِ :

فَٱصبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلمُلْكِ أَصفَاكَا
لَا رُزْءَ أَصبَحَ فِي ٱلأَيَّامِ نَعلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقبَى كَعُقبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلقَوْلِ وَعَلَى هٰذَينِ ٱلبَيتَينِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعدَهُ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلفَضلَ بنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلعَبَّاسِ عَنْ خَيرِ هَالِكٍ بِأَكرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي ٱلحَيِّ بِٱلمَيتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلمُلْكُ مَغبُونٌ وَلَا ٱلمَوتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنتَ مَغبُونٌ . وَأَتبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلوَاثِقِ بَعدَ ٱلمُعتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلكَلَامَ حَيثُ شَاءَ وَأَطنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحتَجَّ وَأَسهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعرِ . وَأَرَادَ ٱبنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفسِهِ ٱلتَّقصِيرَ فَٱقتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصطَفَقَتْ عَلَيكَ أَيدٍ بِٱلتُّربِ وَٱلطِّينِ
إِذهَبْ فَنِعمَ ٱلمُعِينُ كُنتَ عَلَى ٱلدُّ م نيَا وَنِعمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّـةً فَقَدَتْ   مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْـلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ

بُعَيْـدَ ٱلْـكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ   مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ

لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِـكُلِّ مَـكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي   جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا   لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً   كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ   كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَي مُؤَبَّنَةً ... وَمَنْ يَصِفُكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

ورثاء الأطفالِ أن يذكر مخايلهم وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ممن تحزن لمصابهم وتفجع بهم كالذي صنع أبو تمام في ابني عبد الله بن طاهر

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حسب الشاعر أن يكون مدحه شريفاً واقتضاؤه لطيفاً وهجاؤه إن هجا عنيفاً فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان وداعية القطيعة والهجران. وقوم يدرجون العتاب في الاقتضاء والاقتضاء بالعتاب وأنا أرى غير هذا المذهب أصوب فالاقتضاء طلب حاجة وباب التلطف فيه أجود فإن بلغ الأمر العتاب فإنما هو طلب الإبقاء على المودة والمراعاة وفيه توبيخ ومضادة لا يجوز معها بعد اقتضاء إلا أن الناس قد خلطوا هذين وساووا بينهما. فمن أحسن الاقتضاء على ما تخيّروه ونحوت إليه قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... له الحسب المهذب والسناء
خليل لا يغيّره صباح ... عن الخلق الجميل ولا مساء

اِذَا اَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَاَنْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ اِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَاشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ   اِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا اَلُومُكَ اِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ   فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَاَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْاَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا اِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ اُرَجِّيكَ   لِمَا اَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ اَصْبَحْتَ مِنْ اَوْكَدِ م   اَسْبَابِي اِلَى ٱلْفَقْرِ

اَتَرْضَى لِي بِاَنْ اَرْضَى   بِتَقْصِيرِكَ فِي اَمْرِي

وَقَدْ اَفْنَيْتُ مَا اَفْنَيْتُ   فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْاَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي   بَقَايَا اُمَنِّي ٱلنَّفْسَ فِيهَا ٱلْاَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْاَيَّامِ حَتَّى اِذَا ٱنْقَضَتْ   اَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَاَنِّي نَازِفُ ٱلْبِئْرِ طَالِبًا   لِاِجْمَامِهَا اَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ اَبْقَى مَا اَصَابَ لِنَفْسِهِ   وَلَا هِيَ اَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ اَمْلَحِ مَا رَاَيْتُ فِي ٱلِاقْتِضَاءِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ قَوْلُ اَبِي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلْإِجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا

وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا

أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا

وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا

أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا

ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا

وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا

يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا

أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ... تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا

أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ ... هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهٰذَا اَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِاَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَاَنَّـهُ   طِعَانٌ بِاَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَـكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ اَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَـةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْـكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي اِلَيْكَ مُخَايِلًا   لَدَيْكَ وَلَا اُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَاَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً   عَلَيَّ اِذَا كَانَ ٱلْمَـدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَـكَانُهُ   مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

اِلَى اَنْ اَقُولَ :

فَوَٱللهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ   لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

اَلُوذُ بِاَكْنَـافِ ٱلرَّجَاءِ وَاَتَّقِي   شَمَاتَ ٱلْعِدَا اِنْ لَمْ اَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ اَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْاَسْبَـابُ اِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا

قُوًى اَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِـكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِـهِ

وَتَخْلَقُ اَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِـلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِـلُ

اِلَى قَوْلِهِ :

وَاِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْـتَرَمُّ بِنَاؤُهَا   وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُـكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ   وَتَبْعَثُ اَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تَرُدُّ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهِيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهِيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا ٱطَّرَدَ ٱلْقِيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جَوْدَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا . عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً   فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلْقُبْحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَٱلْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ   لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ   إِنَّ ٱلْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ   وَٱللّٰهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ ٱلْعَيْبَ وَٱلنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي   أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيْبُ وَٱلْهَرَمُ

وَلَيْسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ ٱنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ ٱلصُّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ   فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ ٱلزَّمَانَ   فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا
وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ   فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ ٱلْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ ٱلْعِتَابِ قَوْلُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءِ

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
أَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيْنَ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ اَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيُحَذِّرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
أَاَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَاَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً بِعَبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا   فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَاَصْلُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

اَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ   إِنِّي اَخَافُ عَلَيْكُمُ اَنْ اَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا اَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرَّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا اَبَا لَكُمُ   لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى اَنَّهُ   لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا اَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ   وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ اَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ اَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ اَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ اَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ اَحْسَابَهَا   يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللّٰهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسًا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ . فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ . فَيُصَدَّقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

---

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

اِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ اِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ اَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ
ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ
رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى   يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْاَعَزِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ اِتْلَافُ مَالِهِ   وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ اَنِّي هَجَوْتُهُ   وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ اَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلْاِخْتِصَارِ وَٱلْاِسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْاَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَاِنَّمَا   يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ اَنْتُمُ اِنَّا نَسِينَا مَنَ اَنْتُمُ   وَرِيحُكُمُ مِنْ اَيِّ رِيحِ ٱلْاَعَاصِرِ
اَاَنْتُمْ اُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا   فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللّٰهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ   بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللّٰهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا اِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا اِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

اَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا   وَضَبَّةُ اِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلْاِحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْاَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَاِنَّكَ لَوْ رَاَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ   وَتَيْمًا قُلْتَ اَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ اَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ ... وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ ... شَوْقٌ اِلَى وَجْهِهِ سَيَتْلَفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ ... يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْاَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ : اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ . وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يُسْلَبَ ٱلْاِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْاُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا اِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلِي سَرَابِيلُ عَامِرٍ ... مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْاَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ اَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَاِنِ اضْطَرَّهُ ٱلْمِقْدَارُ اِلَى ذٰلِكَ وَاَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاء فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ اِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ اَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَاِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَاَمَّا مَعَ ٱلْاِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ اُخْرَى وَقَدْ اَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ ... اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَاِنَّهَا ... جَهْدُ ٱلْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تَمُدُّنِي ... اَسْبَابُهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ ٱرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَاِنْ زَعَمْتَ بِاَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبَا جَعْفَرٍ   دِعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا   تَأَذَّتِ ٱلْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي ٱلْاعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ ٱلْعَرَبِ قَصَائِدُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ بِٱلسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ   وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلْمُؤْمِنِ ٱلْعَائِذَاتِ ٱلطَّيْرَ تَمْسَحُهَا   رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلْغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ   إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا   كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلْكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي   وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً   وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً   لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ   مِنَ ٱلْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِٱلْوَعِيدِ كَأَنَّنِي   إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلْقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذِّبٌ وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ بِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللّٰهِ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكَ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بهذا المثل من النهار . وفي هذا الاعتراض كلام يأتي في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى . وافضل من هذا كله قول القرآن : ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا . ووجد الفضل بن يحيي على ابي الهول الحميري فدخل اليه فانشده :

كساني وعيد الفضل ثوبا من البلى
وايعاده عندي الذي ما له ردُّ

فجد بالرضى لا ابتغي منك غيره   ورأيك فيما كنت عودتني بعدُ

فقال له الفضل على مذهب الكتاب في تحرير الخطاب : لا احتمل والله قولك (ورأيك فيما كنت عودتني بعد) فقال ابو الهول : لا تنظر الى قصر باعي وقلة تمييزي وافعل بي ما انت اهله . فامر له بمال جسيم ورضي عنه وقربه

وفي اشتقاق الاعذار ثلاثة اقوال احدها ان يكون من المحو كانك محوت آثار الموجدة من قولهم اعتذرت المنازل اذا درست وانشد قول ابن حجر :

او كنت تعرف آيات فقد جعلت
اطلال الفك بالودكاء تعتذر

والثاني ان يكون من الانقطاع كانك قطعت الرجل عما امسك في قلبه من الموجدة ويقولون اعتذرت المياه اذا انقطعت :

والقول الثالث ان يكون من الحجز والمنع . قال ابو جعفر

يُقَالُ عَذَرْتُ الدَّابَّةَ اي جعلتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ الشِّرَادِ فَمَعْنَى اعْتَذَرَ الرَّجُلُ احْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جعلتُ لَهُ حاجزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُقُوبَةِ اوِ الْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ الْاَمْرُ وَاحْتَجَزَ انْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ الْاَعْشَى اَسْيَرَ النَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ وَامْرُؤُ الْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ الشِّعْرِ مُظَفَّرًا . قَالَ الْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَاللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ الشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَى مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ الشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ الْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى الْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ الْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ الرِّيبَةِ . فَمِنَ الَّذِينَ لَمْ يُحِكْ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَيْمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ . فَاَمَّا مَنْ شُقُّوا بِالْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ . وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَاسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ ٱلدِّيَاتِ وَٱلنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ أَبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلسَّبُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَٱسْتَهَانَتِ ٱلْعَرَبُ بِهِمْ وَٱنْطَبَعَ ٱلْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنْذِرِ. وَٱلْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ ٱلْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ ٱلْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِٱلْجَمَلِ ٱلْحَبِطِ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا ٱلسَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ ٱلْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ هِيَ ٱلَّتِي شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ ٱلْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ ٱلرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْقَتْلَ سُبَّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَٱلسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَيْنَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَبْعَثِ ٱلرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ ٱلْجَاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَأَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا أَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ ٱللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هٰذِهِ ٱلنِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا ٱللهُ مُضَاعَفَةً

عِندَ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرنَها مِنــهُ بِالاستحقاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّها وَنَزَلَتْ مَنزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَاَحيــا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَــانَ حَمدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَــةِ اِنْ جِئْتَــهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
اِذَا اَيقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّــهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ اِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

اِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِاَنَّهَا قَطَعَتْ اِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ اَبُو عُبَيْــدَةَ : لَمْ يَمدَحْ اَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِاَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَاَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

اَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْاَجْبَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى يُحَــاكِمَهُمْ اِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَاَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ اُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ اَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ   وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ   بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِمَ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلكَ ابو العَتاهِيَةِ ومَرْوَانُ بنُ ابي حفصةَ أُعطِيَ مِائةَ الفِ دِينارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لا يُقابَلُ اِلَّا بِالكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي البُيُوتاتِ وَالمَعْرُوفِينَ فِي الكَسْبِ وَالشِّعْرِ . وَكَانَ ابو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لا يُدرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيهِ لكِنَّهُ كانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكانَ يَتَسَاجَلُ فِي الاِنفاقِ هُوَ وَعبَّاسُ بنُ احنفَ . وَكَانَ البُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ الشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَامَّا ابو تَمَّامٍ فَمَا وُفِيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيهِ مِنَ الاَموالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ الاَرْضَ وَكَذٰلكَ ابو الطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنشَدَنا ابو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ جعفرٍ النَّحْوِيُّ عَنْ ابي عَلِيٍّ الحُسَيْنِ بنِ اِبْرٰهِيمَ الآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بنِ سَعْدِ بنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي اِلَى الزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ الاَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ مِنَ الاَرْضِ اِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى الزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبِقُنِي اَنتَ اِلَى الاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى المَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي. وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ:

أَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ   غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذَلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ. قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ:

أُولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ   وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ: لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ:

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ   دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى:

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ   أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ:

فَجُنِّبْتَ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ   وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ : اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ اَلسَّحَابُ فَتَخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ : لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ اَلْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ اَلْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا اَلْاَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ اَلسَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ اَلْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ اَلْآخَرِ :

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى اَللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ   فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ اَللّٰهِ اَيْضًا :

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ   اَدْعُو حَنِيفًا كَمَا تُدْعَى اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ

وَرَوَى اَلْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَا وَهُوَ اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ وَقِيلَ اَبْنَةُ اَلْجَبَلِ اَلصَّخْرَةُ اَلْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ . وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ   عَارِي اَلْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ اَلْآخَرِ :

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ   دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ اَلْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ . فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ اَلْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ اَلْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى اَلتَّثَقُّلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ اَلْجِبَالِ . وَمِنَ اَلدُّعَاءِ اَلَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا اَلْبَابِ :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَيَشْغَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلْآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا آذَيَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلْأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ هِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهْوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلْأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا ٱمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ

يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ

تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا

وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ :

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلِٱرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ . وَٱلِٱرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنَبْوَةِ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ

لِتَأْخِيرِ نَفسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ

فَسَيفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ

نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ

كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِندِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا

وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ

وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيفُ مَا بَيْنَ أَنفِهِ

إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ

إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِندٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَهُوَ أَسرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي   أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رماكم اميرُ المؤمنين بحيّةٍ ... اكولٍ لحيّاتِ البلادِ شروبِ
فان يكُ باقي سحرِ فرعونَ فيكمُ ... فانَّ عصا موسى بكفِّ خطيبِ

ثمَّ التفتَ اليهِ : واللهِ لا يأتي بمثلها خطيبٌ مصقعٌ فكيفَ رأيتَ فاعتذرَ اليهِ فحلفَ : ان كنتُ الا مازحًا . وسمعتُ جماعةً من العلماءِ يقولونَ : كانَ مسلمُ بنُ الوليدِ نظيرَ ابي نواسٍ في وقوفهِ عند قومٍ من اهلِ زمانهِ في اشياءَ الّا انَّ ابا نواسٍ قهرَ بالبديهةِ والارتجالِ مع تقبُّضٍ كانَ في مسلمٍ واظهارِ توقُّدٍ وكانَ صاحبَ فكرةٍ وروِيَّةٍ لا يبتدهُ ولا يرتجلُ فكانَ ابو العتاهيةِ فيما يقالُ اقدرَ الناسِ على ارتجالٍ وبديهةٍ لقربِ مأخذهِ وسهولةِ طريقهِ

واجتمعَ عدةٌ من الشعراءِ فيهم ابو نواسٍ فشربَ احدهم ماءً ثمَّ قالَ اجيزونا : بَرَدَ الماءُ وطابا . فكلُّهم تلعثمَ حتى طلعَ ابو العتاهيةِ . قالَ : فيمَ انتم فانشدوهُ . فقالَ وما تردَّدَ : حبّذا الماءُ شرابا . فاتى بالقسيمِ شبيهًا بصاحبهِ . وذلكَ هو الذي اعوزَ القومَ لا وزنُ الكلامِ . وصحبَ رفقةً فسمعَ زقاءَ الديوكِ . فقالَ لرفيقهِ : هل رأيتَ الصبحَ لاحا . قالَ نعمْ . قالَ : وسمعتَ الديكَ صاحا . قالَ نعمْ . قالَ :

انما بكى على المغـ ... ـترِّ بالدنيا وناحا

فاستيقظَ رفيقهُ للكلامِ انهُ شعرٌ فرواهُ . فما جرى هذا المجرى فهو الارتجالُ . واما البديهةُ فبعدَ ان يفكّرَ الشاعرُ يسيرًا ويكتبَ

سَرِيعًا إِنْ حَضَرَتْ آلَةُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ. فَإِنْ أَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ أَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا ٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلرَّشِيدِ فَأَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا ٱلْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: ٱلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ ٱلْجَمَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: أَحْسَنْتَ وَأَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ كَثِيرَ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْارْتِجَالِ إِلَّا أَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ ٱلْفَنَدِ إِذْ كَانَتِ ٱلْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْقَوْلُ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْفُهُ شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي ٱلرَّوِيَّةِ وَٱلْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ ٱلْأَمْنِ وَٱلْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ ٱلْخَشْرَمِ ٱلْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ ٱلْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مُحْكَانَ ٱلسَّعْدِيِّ إِذْ يَقُولُ وَقَدْ أَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا ٱلْحَرْبُ ٱلْعَوَانُ ٱشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَبِيبَةً بِبَاكٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى اَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ اَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا اَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ اِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

اَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ   اَمَعْشَرَ تَيْمٍ اَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا

اَيَا رَاكِبًا اِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ   نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ اَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَاَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ اَلْفَ نَاقَةٍ فَاَبَوْا اِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَاِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ   وَاِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ لَمَّا اَيْقَنَ بِٱلْمَوْتِ :

اَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي

وَلَمْ اُعْطِكُمْ فِي ٱلطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي

اَبَا مُنْذِرٍ اَفْنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ اَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَاَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي ٱلسِّنِّ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ اِذْ يَقُولُ لَهُ ٱلنُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : اَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ ٱلْجَرِيضُ دُونَ ٱلْقَرِيضِ . قَالَ : اَنْشِدْنِي قَوْلَكَ اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ عُبَيْدُ   فَٱلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَقَةِ بَعْضِ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ   جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ابِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

اَٱلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَٱغْتَدَى لِلْبُخْلِ تِرْبًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِاتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَايَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ انْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضَعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا ... رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطُّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مقامٍ مقالٌ . وشعرُ الشاعرِ لنفسِهِ وفي مُرادِهِ وأُمورِ ذاتِهِ من مدحٍ وغزلٍ ومكاتبةٍ ومجونٍ وخمريّةٍ وما أشبهَ ذلك غيرُ شعرِهِ في قصائدِ الحفلِ التي يقومُ بها بينَ السماطَينِ . يُقبَلُ منهُ في تلك الطريقِ عفوُ كلامِهِ وما لا يتكلّفُ لهُ ولا ألقى بهِ بالًا ولا يُقبَلُ منهُ في هذهِ إلّا ما كانَ محكَّكًا مُعاوَدًا فيهِ النظرُ جيّدًا لا غثَّ فيهِ ولا ساقطَ ولا قلقَ . وشعرُهُ للأميرِ غيرُ شعرِهِ للوزيرِ والكاتبِ ومخاطبتُهُ للقضاةِ والفقهاءِ بخلافِ ما تقدّمَ من هذهِ الأنواعِ .

والمتأخّرُ من الشعراءِ في الزمانِ لا يضرُّهُ تأخُّرُهُ إذا أجادَ كما لا ينفعُ المتقدّمَ تقدُّمُهُ إذا قصّرَ وإنْ كانَ لهُ فضلُ السبقِ فعليهِ دركُ التقصيرِ كما أنَّ للمتأخّرِ فضلَ الإجادةِ والزيادةِ . ولا يكونُ الشاعرُ حاذقًا مجوِّدًا حتّى يتفقّدَ شعرَهُ ويُعيدَ فيهِ نظرَهُ فيُسقِطَ رديَّهُ ويُثبِتَ جيّدَهُ ويكونَ بالركيكِ مُطَّرِحًا لهُ راغبًا عنهُ . فإنَّ بيتًا جيّدًا مقامَ ألفِ رديٍّ . وقالَ امرؤُ القيسِ وهوَ أوّلُ ما زعموا أنّهُ اختيرَ لهُ وعُلِمَ بهِ أنّهُ أفضلُ الشعراءِ والمقدَّمُ عليهم :

أذودُ القوافيَ عنّي ذِيادا ذِيادَ غلامٍ جريءٍ جرادا
فلمّا كثُرنَ وعنّينَهُ تخيّرَ منهنَّ ستًّا جيادا
فأعزلُ مرجانَها جانبًا وآخذُ من دُرِّها المُستجادا

ويُقالُ إنَّ أبا نُواسٍ كانَ يفعلُ هذا الفعلَ ويُبقي الجيّدَ ويلتمسُ لهُ من الكلامِ ما سهلَ ومن المعنى ما كانَ واضحًا جليًّا

يُعرَفُ بَديًّا. فقد قالَ بعضُ المتقدِّمين: شرُّ الشِّعرِ ما سُئل عنه. وكانَ الحُطَيئةُ يقولُ: خيرُ الشِّعرِ الحَوليُّ المُحكَّكُ. اخَذَ في ذلكَ بمذهبِ زُهَيرِ بنِ ابي سُلمى واوسٍ وطُفيلٍ. ولا يجوزُ للشّاعرِ كما لا يجوزُ لغيرِهِ ان يكونَ مُعجَبًا بنفسِهِ مُثنيًا على شعرِهِ وانَّ فضيحةً ظاهرةً كانَ غنيًّا عنها. وكانَ في البُحتريّ اعجابٌ شديدٌ اذا انشدَ يقولُ: ما لكم لا تعجبونَ ما احسنَ ما تسمعونَ. فانشدَ المتوكّلَ يومًا قصيدتَهُ:

عن ايِّ ثغرٍ تبتسِمْ وبايِّ طرفٍ تحتكِمْ

وابو العبّاسِ الصَّيمَريُّ حاضرٌ فلمّا رأى اعجابَهُ قامَ حِذاءَهُ وقالَ:

من ايِّ سَلحٍ تلتقِمْ وبايِّ كفٍّ تلتطِمْ

فولّى وهو غضبانُ. فقالَ: وعلمتُ انّكَ تنهزِمْ. فضحكَ المتوكّلُ حتّى فحصَ برجلَيهِ واعطى الصَّيمريَّ جائزةً سنيّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لا بُدَّ للشّاعرِ وانْ كانَ فحلًا حاذقًا مُبرِّزًا مُقدَّمًا مِن فترةٍ تعرِضُ لهُ في بعضِ الاوقاتِ اما لشُغلٍ طرأَ او موتِ قريحةٍ او نُبُوِّ طبعٍ في تلكَ السّاعةِ او ذلكَ الحينِ. وقد كانَ الفرزدقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَاِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ اَصْفَى كَمَا يُقَالُ اَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ اِذَا ٱنقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ ٱلْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ . وَاُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى اُفْعِلَ وَقَالُوا:هُوَ مِنْ فَحْمِ ٱلصَّبِيِّ اِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ . فَاِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ اِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْاِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ اَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى ٱلرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِيِّ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيِّ فَقَالَ : اِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسْاَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا ٱنصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَاِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْاَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنتها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وابهم دونه. لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة ومطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الحسد وتولد الشهوة. وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر. فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه. قيل له: وعنه سألتك ما هو. قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب وحط رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول. وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك. قال: اطوف في الرياض المعشبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

أحسنهُ . وقالَ الأصمعيُّ : ما استدعيَ شاردُ الشعرِ بمثلِ الماءِ الجاري والشرفِ العالي والمكانِ الخالي . وقيلَ الخالي يعني الروضَ
وحدّثنا بعضُ أصحابنا من أهلِ المهديّةِ وقد مررنا بموضعٍ بها يُعرفُ بالكنديّةِ وهوَ أشرفها أرضًا وهواءً . قالَ : جئتُ هذا الموضعَ مرّةً فإذا عبدُ الكريمِ على سطحٍ هنالكَ قد كشفَ الدنيا . فقلتُ : أبا محمّدٍ . قالَ : نعم . فقلتُ : ما تصنعُ هاهنا . قالَ : ألقحُ خاطري وأجلو ناظري قلتُ : فهل نتجَ لكَ شيءٌ . قالَ : ما تقرُّ بهِ عيني وعينُكَ إن شاءَ اللهُ تعالى وأنشدَ شعرًا يدخلُ مسامَّ القلوبِ رقّةً . قلتُ : هذا اختيارٌ منكَ اخترعتهُ . قالَ : بل برأيِ الأصمعيِّ
وقالوا كانَ جريرٌ إذا أرادَ أن يؤبّدَ قصيدةً صنعها ليلًا يُشعلُ سراجًا ويعتزلُ أهلهُ وربّما علا السطحَ وحدهُ وغطّى رأسهُ رغبةً في الخلوةِ في نفسهِ . فحُكيَ أنهُ صنعَ ذلكَ في قصيدتهِ التي أخزى بها بني نُميرٍ
وروِيَ أنَّ الفرزدقَ كانَ إذا عصتْ عليهِ صنعةُ الشعرِ ركبَ ناقةً وطافَ وحدهُ منفردًا في شعابِ الجبالِ وبطونِ الأوديةِ والأماكنِ الخاليةِ فيعطيهِ الكلامُ قيادهُ . حُكيَ ذلكَ في قصيدتهِ الفائيّةِ : عُرفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعرفُ
وذُكرَ أنَّ فتًى منَ الأنصارِ فاخرَ بأبياتِ حسّانَ بنَ ثابتٍ :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَٱنظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى: أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لُبَيْنَى صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ: وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ. فَلِهٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ. وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرَيَّضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ فَانَيْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ ابِي تَمَّامٍ وَاشَدَّ مِنْهَا وَقعتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ الفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ انَا ٱلْمَوْتُ ٱلَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَٱنْظُرْ كَيْفَ انتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِٱلطَّلَاقِ انَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي ٱلرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: انَا ابُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ ابْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

انَا ٱلدَّهْرُ يُفْنِي ٱلْمَوْتَ وَٱلدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ ٱلدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ ابُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ ٱلْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ ٱلْاعْجَازَ بِٱلصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلتَّصْدِيرُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا الَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَٱلصَّوَابُ انْ لَا يَصْنَعَ ٱلشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ انِّي لَا اجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلْبَتَّةَ بَلْ اصْنَعُ ٱلْقَسِيمَ ٱلْاوَّلَ عَلَى مَا ارِيدُهُ ثُمَّ ٱلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ ٱلْقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَابْنِي عَلَيْهِ ٱلْقَسِيمَ ٱلثَّانِيَ افْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي ٱلْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ وَلَمْ ارَ ذٰلِكَ يُخِلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ ٱلْقَسِيمِ ٱلْاوَّلِ الَّا فِي ٱلنُّدْرَةِ ٱلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّنْقِيحِ ٱلْمُفْرِطِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ الَيْهِ بَيْتٌ وَٱثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ انْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِابْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَٱنْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ إِلَّا أَنْحَلَ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ .

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ: مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبُرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ . وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا : ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِٱسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاخلى في الصُّدور وَاسلمُ مِنْ فَاحِشِ الخطَاء وَاخلبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وغِرَةٍ مِنْ لفظٍ شَرِيفٍ ومَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعلمْ انَّ ذلكَ اجدى عَلَيْكَ مِمَّا يُعطِيكَ يومُكَ الاطولُ بالكَدِّ وَالمُجاهدةِ وبالتَّكلُّفِ وَالمُعاندةِ ومهما اخطاكَ لم يُخطِئْكَ انْ يكونَ مقبولًا قصدًا او حقيقةً على اللِّسانِ سهلًا كماء خرجَ مِنْ يَنْبوعِهِ ونَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَايَّاكَ وَالتَّوعُّرَ فانَّ التَّوعُّرَ يُسلِمُكَ الى التَّعقيدِ وَالتَّعقيدُ هُوَ الَّذي يَستهلِكُ مَعانيكَ ويَشينُ الفاظَكَ . ومَنْ اراغَ معنًى كريمًا فليَلتمِسْ لفظًا كريمًا فانَّ حقَّ المعنى الشَّريفِ اللَّفظُ الشَّريفُ ومِنْ حقِّهِما انْ يَصونَهُما عمَّا يُفسِدُهُما ويُهجِّنُهما وعمَّا يعودُ مِنْ اجلِهِ اسوأَ حالًا منكَ قبلَ انْ يُلتمَسَ اظهارُهما وتَرْهَنَ نفسَكَ في مُلابستِهِما وقضاءِ حقِّهِما وكُنْ في احدى ثلاثِ مَنازِلَ فانَّ اوَّلَ الثَّلاثِ انْ يكونَ لفظُكَ رشيقًا عذبًا او فخمًا سهلًا ويكونَ معناكَ ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا . امَّا عندَ الخاصَّةِ انْ كنتَ للخاصَّةِ قصدتَ . او للعامَّةِ انْ كنتَ للعامَّةِ قصدتَ وَالمعنى ليسَ يَشرُفُ بانْ يكونَ مِنْ معاني الخاصَّةِ وكذلكَ ليسَ يتَّضِعُ بانْ يكونَ مِنْ معاني العامَّةِ وانَّما مدارُ الشَّرفِ معَ الصَّوابِ واحرازِ المنفعةِ ومعَ موافقةِ الحالِ ومعَ ما يجبُ لكلِّ مقامٍ مِنَ المقالِ . وكذلكَ اللَّفظُ العامِّيُّ وَالخاصِّيُّ فانْ امكنكَ انْ تبلغَ مِنْ بيانِ لسانِكَ وبلاغةِ قلمِكَ ولُطفِ مَداخِلِكَ واقتِدارِكَ في نفسِكَ على انْ تُفهِمَ العامَّةَ معانيَ

ٱلخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلالفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَـةَ ٱلَّتِي لَا تَلطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلاَكْفَاءِ فَانتَ ٱلبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلمَنزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْـدَ اوَّلِ نَظَرِكَ فِي اوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلقَافِيَةَ لَمْ تَحِلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ اوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلكَلَامِ ٱلمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ . فَإِنْ أَنتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ . فَإِنْ أَنتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَـةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنزِلَةُ ٱلثَّالِثَـةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلمَحَبَّـةِ . وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ أَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْانْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْامْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَأَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَأَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَإِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوِيَ ٱنْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً. وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱخْتَلَفَ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيرُهُم : ٱلمَقَاطِعُ مُنقَطَعُ ٱلأَبيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ
أَوَائِلُ ٱلأَبيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بنُ جَعفَرٍ فِي بَعضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
ٱلتَّصرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجزَاءِ فِي ٱلبَيتِ عَلَى سَجعٍ
أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ
ٱلعِبَارَةِ إِلَى ٱلمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجزَاءِ ٱلبَيتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ
ٱلشِّعرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجعُهُ غَيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجزَاءِ نَحوَ قَولِ أُمِّ
مَعدَانَ فِي مَرثِيَةٍ لَهَا :

فِعلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِعْ م طَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَم يُعطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجعُ فِي هٰذَا ٱلبَيتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنهُ
وَآخِرُ ٱلأَجزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبلَ ٱللَّامِ .
ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجعَلَ ٱلسَّجعُ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعلَمُ
حَرفَ ٱلسَّجعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثلُ هٰذَا
فِي أَنوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلمَقطَعَ وَٱلمَطلَعَ أَوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ
وَآخِرُهَا وَلَيسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ
إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ ٱلمَقطَعِ وَٱلمَطلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلقَصِيدَةَ
إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا
عَلَى مَا قَدَّمتُ مِنْ ذِكرِ ٱبتِدَاآتِ ٱلأَبيَاتِ أَوِ ٱلأَقسِمَةِ وَٱنتِهَائِهَا

وَ سَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ : ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْإِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ . حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلْإِسْتِعَانَةُ فَقَالَ : أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللّٰهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَزَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلقَطَامِيّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلجَمُومَيْنِ سَاهِرَا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ

عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلكَرَى بَيْنَ ٱلجُفُونِ مُحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبنَ عليٍ ٱلخزاعيَّ وردَ حمصَ فقصدَ دارَ عبدِ ٱلسلامِ بنِ رغبانَ ديكِ ٱلجنِّ فكتمَ نفسهُ عنهُ خوفًا منْ قوارصِهِ فقالَ : ما لهُ يستترُ وهوَ اشعرُ ٱلجنِ وٱلانسِ اليسَ ٱلقائلَ :

بِها غيرُ معذولٍ فدًا وخمارُها ٭ وهلْ بعشياتِ ٱلغبوقِ ٱبتكارُها

فظهرَ اليهِ وٱعتذرَ اليهِ واحسنَ . ثمَّ تناشدا فانشدَ ديكُ ٱلجنِّ ٱبتداءَ قصيدةٍ :

كأنَّها ما كأنَّهُ خللُ ٱلخلّةِ ٭ وقفُ ٱلهلوكِ انْ بغمَا

فقالَ لهُ دعبلٌ : ٱسكتْ فواللهِ ما ظننتُكَ تتمُّ ٱلبيتَ إلَّا وقد غُشيَ عليكَ او تشكَّيتَ دماغكَ وكانَّكَ في جهنمَ تخاطبُ ٱلزبانيةَ او تخبَّطكَ ٱلشيطانُ منَ ٱلمسِّ . وإنّما ارادَ ٱلديكُ انْ يهوّلَ عليهِ ويقرعَ سمعهُ عسى انْ يزعجهُ او يروعهُ فسمعَ منهُ ما كرهَ . ولعمري ما ظلمهُ دعبلٌ ولقدْ ابعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ منْ جهاتٍ منها إضمارُ ما لمْ يذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلهِ فيُعذرَ ولا كثرَ ٱستعمالُهُ فيُشهرَ مع إحالةِ ٱلتشبيهِ على تشبيهٍ ثقُلَ تجانُسهُ ٱلذي هوَ حشوٌ فارغٌ لوْ طُرحَ منَ ٱلبيتِ كانَ احزمَ وٱستدعى قافيةً لا لشيءٍ إلَّا لفسادِ ٱلمعنى وٱستحالةِ ٱلتشبيهِ ما ٱلذي يريدُ ببغامهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهوَ ٱلسوارُ ولمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصّةً . ومثلهُ قولُ محمدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزيّاتِ يصفُ ناقتهُ في اوّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ :

كأنَّها حينَ تناءى خطوُها ٭ اجشُّ موشيُّ ٱلشوى يرعى ٱلقللْ

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ ٱلْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ ٱلشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ ٱلنَّاقَةَ بِٱلظَّلِيمِ وَٱلْحِمَارِ وَٱلثَّوْرِ بَعْدَ ٱلْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي ٱلْوَصْفِ. هٰذَا هُوَ ٱلْجَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَذَلَتْ جُهْدَهَا وَٱسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ ٱلتَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ ٱلزِّيَادَةِ. ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى ٱلْقُلَلَ » وَٱلثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ ٱلْجِبَالِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ ٱلْوَعِلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَٱلثَّوْرُ فِي ٱلسُّهُولِ وَمَوَاضِعِ ٱلرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِٱلنَّبَاتِ أَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ ٱلْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْأَوَّلِ إِذَا ٱبْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّسِيبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ   أَغِذَاءُ ذَا ٱلرَّشَإِ ٱلْأَغَنِّ ٱلشِّيحُ

فَهٰذَا ٱعْتِذَارُ مَنِ ٱعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي ٱلرِّثَاءِ وَٱلتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ أَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْعَظَائِمِ مِنَ ٱلْأُمُورِ وَٱلنَّوَازِلِ ٱلشَّدِيدَةِ. وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ ٱمْتَدَحَ أَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَٱفْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ. فَقَالَ ٱلرَّجُلُ لَعَنَهُ ٱللهُ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلنَّاسُ أَجْمَعُونَ.

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا . وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ الْحَوْطَةَ وَالتَّحَفُّظَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَالتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ . وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ « أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ابْنَ الْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ الْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَالْعَيْبُ مِنْ بَابِ التَّأَدُّبِ وَحُسْنِ السِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي الطَّيِّبِ فِي هٰذَا الْابْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا النَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ الْابْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي الطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ الشِّعْرُ . وَدَخَلَ ذُو الرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَاسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ : وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ابْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي النَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ :

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي الْأُفْقِ عَيْنُ الْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَانَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ اَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْاَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي اَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ اِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَانْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. اَلَا تَرَى اَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِاَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ اَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ اَحَدٌ لِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: اِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَانَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ اَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ اَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ اَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْاَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَالَيْهِ اُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَامَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَاُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: اَتَعْرِفُ اَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... اِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَانَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَامَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ اَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا : عِشْ اَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

يَا اَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ اَبَدًا ... دُمْ عَلَى ٱلْاَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ

اَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا ... فَإِذَا اَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْاِمْكَانِ فَاِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِاَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي اَسَاءَ فِيهِ اَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ اَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ اَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اَوَّلَهَا :

اَرَبْعَ ٱلْبِلَى اِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ ... عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اَخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا اَنْفُسَنَا يَا اَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِاَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا أَشُكُّ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱللَّهْوِ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ . وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلْإِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْإِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَأُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَأَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ . ثُمَّ يَخْرُجَ إِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ . وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَأَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَمْحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي　　بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ　　يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ
عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ
بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا
مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ

تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا اَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ اَنَّهُ قَصَدَ ٱلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا اِمَّا اِخْبَارًا بِٱلصِّدْقِ وَاِمَّا تَعَاطِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ اَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيْكَ اَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا

قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَنِينًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيقِ وَلَا ٱلْهِنَا

فَذَكَرَ اَنَّ قَلَائِصَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَطَوْا اِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِٱلنِّعَالِ وَاَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ ٱللُّغْزِ وَاَتْبَعَهُ اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ ٱلرَّدِيفَ وَلَا بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ اَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَٱلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً اُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ اَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اَبُو ٱلطَّيِّبِ لٰكِنْ اَرَادَ اَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ اَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحَضْرَمِيُّ مِنَ ٱلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ ٱلْمُسَافِرُ دُونَ ٱلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ ٱلْكَلَامِ اَنَّ مَقْصَدَ ٱلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ

أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ

وَعَيْنِي إِلَى أُذْنِي أَعَزَّ كَأَنَّهُ

مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

اعِزْ شِعْرَكَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصفَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مَنْ خَدَمَ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلْاَبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلْاَبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاَبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلْاَسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلْاَبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَّلَهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا اَبْتِدَاءً جَيِّدًا بِاَبْتِدَاءٍ لَاَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ ٱلِٱبْتِدَاءِ لَهُ رَوعَةٌ وَعَلَيهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ :

ٱلْحَقُّ أَبْلَجُ وَٱلسُّيُوفُ عَوَارِ   فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ ٱلعَرِينِ حَذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيضًا :

ٱلسَّيفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ ٱلْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ ٱلْحَدُّ بَيْنَ ٱلْجِدِّ وَٱللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ٱبْنِ هُمُومِ » وَٱلْغَالِبُ تَحْتَ ٱللَّفظِ وَجَهَارَةُ ٱلِٱبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو ٱلقَاسِمِ ٱلْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ ٱلآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ٱبْتِدَاآتِ ٱلْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ ٱلَّذِي وَضَعَ كِتَابَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلتَّرْجِيحِ بَيْنَ ٱلطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِٱلْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ٱبْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ :

عَارَضْنَنَا أُصُلًا فَقُلْنَا ٱلرَّبْرَبُ   حَتَّى أَضَاءَ ٱلأُقْحُوَانُ ٱلأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا ٱلْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِٱلِٱسْتِطْرَادِ وَلَيسَ بِهِ لِأَنَّ ٱلْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَخَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سُقِيَتْ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ   مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا

وَلَوَ ٱنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ ٱلْمُنَى   لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَهِيمَا

وَاكْثَرُ ٱلنَّاسِ ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلْفَنِّ ابُو ٱلطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَٱنْظُرِي اوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا
عَلَّ ٱلْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
الَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى انْ يَكُونَ ٱلْأَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ:

سَاشْكُو الَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ   هَوَانَا لَعَلَّ ٱلْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِانَّ ابَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّحَابَةِ فَقَالَ:

امِيرٌ رَايْتُ ٱلْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ   ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَانَّهُ اشَارَ الَى انَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اوْ يَتَسَرَّاهَا. وَابُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلْقِيَادَةِ فَقَالَ:

ايْقَنْتُ انَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي   لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى انَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ اجِيبَ الَى مُسَاعَدَةِ ابِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَالَّا رَجَعَ الَى ٱلْقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ ابِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

احِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاشْكُو الَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن ابي نواس

واولى الشعر بان يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر عن معنى الى معنى ثم عاد الى الاول واخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني آخر نسيب قصيدة اعتذر بها الى النعمان :

فكفكفت مني عبرة فرددتها
على النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبى
وقلت الما اصح والشيب وازع

ثم تخلص الى الاعتذار فقال :

ولكن هما دون ذلك داخلا مكان الشغاف تبتغيه الاصابع
وعيد ابي قابوس في غير كنهه اتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع منه ذلك فقال :

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع

فوصف الحية والسليم الذي شبه نفسه به ما شاء ثم تخلص من الذي كان فيه فقال :

اتاني ابيت اللعن انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

ثم اطرد له القول ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة وهو ما اشرت اليه غير خاف ان شاء الله تعالى . وقد

يَقَعُ مِنْ هـذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شُبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ. وَامَّا ٱلِانْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ انْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ احْسَنُ مِنْهُ. وَاذَا كَانَ اوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ انْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ. وَقَدْ ارْبَى ابُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَّا انَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ اوَائِلَ ٱلْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ اوَّلَ قَصِيدَةٍ:

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ اشْجَاهُ طَاسِمُهْ ... بِانْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ اشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَانَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصْمَعِيُّ إِلَى انْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ. وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ اوْلَى بِهِ وَاشْعَرَ لَهُ وَإِنَّمَا ادْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْإِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

أُحِبُّكَ اوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ... ثَبِيرًا وَٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ رِيعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى احَدٍ. وَمَا اظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ اوْرَدَهَا ابُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ انَّهُ قَالَ: رَايْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ. وَقَدْ جَعَلَ ابُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا ٱلْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ. وَقَالَ ايْضًا:

اعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ   عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً   بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفَاءِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ   وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٢	٥	الجدِلِ	الجدَلِ
٠	١٤	الجذلِ	الجدَلِ
٤	١١	كالحالَ	كالحالِ
٠	١٤	كلُّ	كلَّ
٥	١٣	يُثبتُ	يُثبتَ
٢١	٠٤	استبهمَ الكَلامَ	استُبْهِمَ الكلامُ
٣٦	١٩	يُقنعُ	يُقنعَ
٤٢	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فانْ	فانَّ
٤٨	٠٤	بنُ عَتَبَةَ بنُ	بن عَتَبَةَ بنِ
٠٠	٦و٧و٨	وَهُوَ	وَهُوَ
٥٤	١٧	جُلّها ودُقها	جلها ودِقها
٥٦	٠٨	التي	اَمّا التي
٥٧	١٧	ألاكثرات	الإكثرات
٥٨	٠٨	يَعلَمَ	يَعلَمُ
٥٩	١٤	والتشرر	والتَّشَدُّدِ
٦٢	٠٧	والتَّقْصيرِ	والتقصيرُ
٠٠	٠٨	وقصدِ	وقصدُ
٦٣	٠٢	والسخيف	السَّخيف
٧٠	٠٢	والطَّيشِ	والطَّيشُ
٧١	٠٥	يستودعَ	يستودعُ
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسَةِ	الحروب مجالسةِ
٨٦	٠٧	كثيرةٍ	كثيرةً
٩٠	٠٧	الشعبُ	الشعث
١٠٢	١٢	مقدمتِهِ	مقدَّمَتَيهِ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	اَلتَّكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الفاظِك	الفاظَك
١٢٤	٠٧	اَلسَّكونيِّ	السَّكُونيِّ
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحاقه	اَحاقه
١٤٤	١٦	وَغَيْرُ ذَلكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلَهُ	وغيرَ ..... يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالنقصانِ	بالنقصان
١٥٢	١٠	والجَسدانية	والجُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكِرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ويجاوزهم
١٦٠	٠٨	طلبِهُ	طلبَهُ
١٦٦	٢٠	إنّها	أنّها
١٨٠	٠٤	يَسُرُّ	يُسَرُّ
١٨١	٠٢	ابثارِ	ايثار
١٨٣	١١	فالذَّكرانُ	فالذُّكران
١٨٤	١٢	واحدُ	واحَدُ
٢١١	١٤	والتبرّوءِ	والتبرُّوء
٢١٢	١١	اَلاحسنُ منها	الاَحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتمتبرَ	وتمتبرُ
٠٠٠	١٣	لَقْب	لَقَب
٠٠٠	١٤	المطّلعُ	المطلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتقفيه	بتقفية
٢١٥	٢٠	ابا دَاوُدَ	اَبَا دُوَادٍ
٢١٦	٠٠	الخِطابَة	الخَطابَة
٠٠٠	٠٦	يومون	يرمون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلفَت	أُلفَتْ
٢١٧	٠٩	لتنشيم	لَتَشمِيم
٢١٨	١٥	تَاكَأْتُم	تَلَكْتُوهُ
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْدَ	ذَوْد
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيهِ	بِمعانيهِ
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومِنْ	ومِمّن
٠٠٠	١٦	باهلةٍ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكرٍ	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	ثَمامة	ثُمامة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وظاهرٌ
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الصَّلِيلُ	الضِّلِّيلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة في ظهور امرهِ غنى عن التنبيه اليهِ